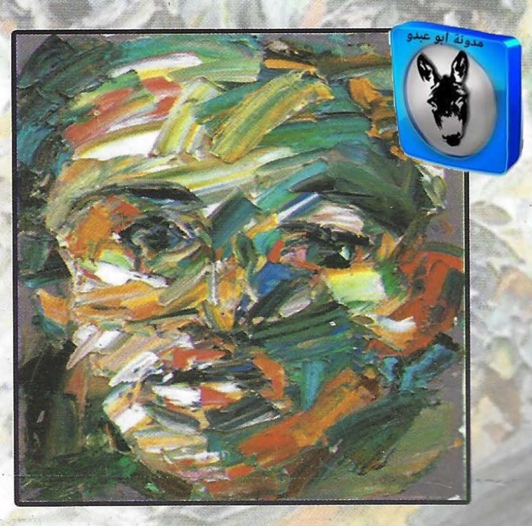
كتاب الهلال

وجوه في أزمنة الخوف

عن الهويات المجرّحة والموت المؤجل



محمود قرني

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

الإدارة

القاهرة ١٦ شارع محمد
عز العرب بك (المبتديان سابقاً)
ت. ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب. ٦١ العتبة.
القاهرة الرقم البريدي ١١٥١١
تلغرافيا: المصور - القاهرة
ج. م. ع.
تلكس:
Telex ٩٢٧٠٣ hilal u n
فاكس: FAX ٢٦٢٥٤٦٩



مدير التحرير
أحمد شامخ

المستشار الفني
محمود الشيخ

مستشار التحرير
محمد رضوان

نائب مدير التحرير
حنان شعيب

سكرتير التحرير
صلاح زبادي

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة
لبنان ٨٠٠٠ ليرة
السعودية ١٢ ريالاً
البحرين ١.٢ دينار
قطر ١٢ ريالاً
الإمارات ١٢ درهماً
اليمن ٤٠٠ ريال
[illegible] ٢ دولار

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٢٠٠ جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٥٠ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٧٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٩٥ دولاراً - باقي دول العالم ١٥ دولاراً

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الاشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يونيو ١٩٥١

البريد الإلكتروني، helalmag@yahoo.com

طبع هذا العدد بأحبار باكين



وجوه في أزمنة الخوف

عن الهُويّات المجرّحة والموت المؤجل

محمود قرني

دار الهلال

الكتاب : وجوه فى أزمنة الخوف

المؤلف : محمود قرنى

التصنيف : كتاب

الناشر : كتاب الهلال - دار الهلال

التاريخ : أبريل ٢٠١٦م

رقم الإيداع : ٢٠١٦/٨٠٩٢

الترقيم الدولى : 978-977-07-1752-5

مقدمة

عن التعايش مع مخلفات عصر النهضة!

كان أخطر ما تركته علوم الاستشراق للعقل العربى هو تحور السؤال الوجودى إلى سؤال يسبح فى فراغ الآخر، يحصل على مشروعية تقدمه أو تخلفه، يكتب المستقبل أو ينزلق إلى أضابير الماضى. من هذا المنطلق حاولت الكثير من الأدبيات المحدثة التشكيك فى وجود الفكر العربى بالأساس، باعتباره يقتات على مخلفات عصر النهضة فى تجلياته الغربية، وباعتباره أيضا مردودا استشراقيا لم ينجح فى التعبير عن القطاعات العريضة من المتعلمين فضلا عن الحشود الكبرى من العامة.

ورغم أن جانبا من تلك التصورات لم يكن بعيدا عن الحقيقة، فإن ذلك لم يحل دون تشكل التكوينات الفكرية المحلية، التى استطاعت أن تقيم تمايزات مقبولة فى العلاقة مع الآخر. فلا يمكننا مثلا التحدث عن الوضعية المنطقية عند

زكى نجيب محمود باعتبارها إعادة إنتاج لفرانسيس بيكون أو جون ستيوارت ميل أو مدرسة فيينا جملة، فقد استطاع عبر قناعته بـ"التحليلية"أن يقدم قراءة مدهشة لموقفه من التراث، واستطاع عبر المنهج نفسه مع آخرين، تفتيت مفهوم جماعات واسعة من الأصوليين الذين لايزالون حتى الآن يدفعون باتجاه العودة للماضي سواء عبر استغلال الفجوات العقلية أو عبر القتل والترويع.

وقد أثمرت الكثير من هذه الآراء مجتمعا لا يمكن رده للجاهلية المطلقة. فرغم كل شيء، نحن أمام مجتمع اخترقت حصونه مفاهيم عديدة حول نبذ الحكم العشائرى وتصاعد الأبنية العقلية جملة، واحتلالها مركز الصدارة فى لحظة من اللحظات، وبشكل عام تصاعدت قيمة العلم فى بناء مؤسسات ذات طابع علمانى محض. غير أن تأمل تلك التصورات فى مواجهة نظم الحكم ستدهشنا بالنتائج التى نراها على الأرض. وهذا الانفصال بين البناءات العقلية المتقدمة والأداء النكوصى لا يمكن فهمه دون تحليل الواقعين السياسى والمجتمعى، عبر اختراق طبقات الحكم، أقصد تحليل دور المال والسلطة فى مواجهة الأدوات الناعمة للتعبير العقلى،

وهو صراع يبدو فريضة من فرائض التبعية التى أنتجها النموذج الاستشراقى سياسيا واجتماعيا.

وهنا حاولت تقديم العديد من الوجوه التى تمثل واحدة من التعبيرات المتقدمة عن تلك الحالة بمدلولها الإيجابى على مستوى منجزها العقلى مثل: إدوارد سعيد، محمد حسنين هيكل، سلامة موسى، أحمد لطفى السيد، نوال السعداوى وغيرهم، أو على مستوى المنجز الإبداعى مثل: نجيب محفوظ، محمود درويش، عبد الرحمن الأبنودى، عفيفى مطر وغيرهم. فى الوقت نفسه تخللت تلك الوجوه أسماء أخرى لايتفق معها التوجه العام للكتاب مثل: أحمد كمال أبو المجد، ياسر برهامى، ومجدى الجلاد على سبيل المثال. فاعتقادى الراسخ أن الأشياء تعرف بنقائضها، لذلك لم أر تناقضا بين وجود الكاتب والصحفى الاستثنائى محمد حسنين هيكل بين دفتى الكتاب مع وجود اسم صحفى على النقيض من هيكل وعصره وقيمته. كما أن وجود أسماء أسست لعصر من الاستنارة مثل: سلامة موسى وغيره لم يمنعنى من التوقف أمام نموذج نقيض يمثله هنا الشيخ ياسر برهامى.

وما من شك فى أن جزءا أساسيا من تناول تلك الوجوه فى اللحظة الراهنة يعزز فكرة المواجهة التى باتت حتمية أمام

أزمــة الفكر العــربى، فــالنداءات الحــارقــة لتــعــزيز وجـود"الآخـر"الـغربى تحـديدا"كـدعـوة تحض على التـعـايش، وتحاول أن تتجاوز التاريخ الاستعمارى الشـائن انتـهت إلى تكريس مفهوم التبعية، وإعادة إنتاج الأنماط المعرفية للمركزية الأوروأمريكية بصور مختلفة وتحت شعارات جديدة جذابة مثل عولمة المعرفة التى انتهت إلى تعزيز التوحش الرأسمالى، والحد من الهجرات الواسعة إلى أوروبا. حدث هذا فى الوقت الذى لم تسفر فيه دعوات عولمة المعرفة سوى عن مزيد من الجوعى جنوب خط الاستواء، ومزيد من الغرقى الذين يعبرون من قيظ الجنوب حالمين برفاه الشمال. من هنا ستظل مقولات الفكر العربى فى حاجة إلى إعادة اختبار، لكن ذلك لن يحدث سوى بعد إعادة تعريف الآخر وفق احتياجاتنا وليس وفق الاحتياجات التى فرضها الآخر نفسه.

ولعل كثيرين منا يذكرون كيف تجسدت فى بداية ثورات التحرر عشرات الأفكار البراقة حول استعادة الفرد لصوته الخاص، وعودة الطبقة المتوسطة لقيادة المجتمع بعد عشرات العقود من الحكم الهيراركى، وكانت فكرة التحرر الوطنى فكرة مركزية التف حولها المهمشون فى العالم الثالث. غير أن

الغرب الذى روج لصورة الديكتاتور العادل عاد ليعاقب المؤمنين بها، وكانت تهديداته الموجهة للمستعمرات القديمة جزءا من تعزيز هذه الحلول غير الديمقراطية. وفى غمرة الصراع ثنائى القطبية تم كسر شوكة المشروع الوطنى فى العالم على نحو عام وفى العالم العربى على نحو خاص. فبعد أن تجسد مشروع النهضة فى تنامى مراكز تقليدية مثل بغداد والقاهرة ودمشق، انتهى الصراع فى غير صالح الطموحات الوطنية لاسيما بعد هزيمة ١٩٦٧ ومعاهدة السلام ١٩٧٩ التى أخرجت مصر، ليس من الصراع العسكرى فحسب، بل من الصراع الحضارى نفسه.

وهكذا استعاد الغرب طبعا مراكز نفوذه القديمة، وظل لعشرات السنين يدعم حكاما يقترب أداؤهم من الخيانة الوطنية كما فعل مع نظام حسنى مبارك فى مصر، وفى السبيل إلى ذلك تم دعم تحالفات غير أخلاقية مع رأس المال من ناحية ومع التيارات الدينية المتشددة من ناحية أخرى لتؤدى دورا لا يمكن وصفه بأقل من الخيانة، فقد كانت تلعب دورا فى حماية تلك الأنظمة لقاء حصة فى الحكم ولقاء استحقاقات الوجود، مقابل ذلك قبلت تلك الجماعات استخدامها كفزاعة للنموذج الحضارى"الأرقى"الذى كان من

المفترض له أن ينبذ الحكم الدينى ويعتبره خصما تاريخيا
وقد رأينا كيف تحولت تلك المعادلة بشكل سافر بعد أن قررت
الولايات المتحدة التخلص من مستوطناتها القديمة فى الشرق
الأوسط بما فى ذلك رجال تلك المستوطنات، وكان البديل
الجاهز هو الإسلام السياسى فى أكثر صوره توحشا. وقد
كشفت تحولات تلك الصورة عن الخراب الذى خلفته تلك
السلطات العميلة عبر عشرات السنين من الفساد، وأظن أن
أخطر مظاهر هذا الخراب يتمثل فى كسر إرادة النخبة
العربية بدرجات متفاوتة. وبكل أسف تحول دور تلك النخبة
من كونها تمثيلا لسلطة المثقف النقدى والنقضى فى آن واحد
إلى كونها أدوات تبريرية لخطاب سياسى يفتقر إلى أدنى
الروادع القانونية والأخلاقية. وأظن أن حال النخبة المصرية
بعد ثورتى يناير ٢٠١١ ويونيو ٢٠١٣ ربما يُعَدُّ أعلى تمثيلات
هذا الخراب. وأتمنى أن يكون ماتضمنه هذا الكتاب يقع
ضمن المحاولات الجادة لإعادة التذكير بالنموذج المتقدم لدور
النخبة، وأن يكون محفزا على الانتباه للخطر الذى تقف على
مذبحه نخبتنا المصرية والعربية على السواء.

محمود قرني

٢١ / ٢ / ٢٠١٥

الباب الأول :

الأبنية العقلية فى عراء السلطة

خطاب إدوارد سعيد فى الإعلام الصهيونى وظلاله بعد الثورات العربية

هل يمكن القول.. إن الآلة الإعلامية الصهيونية سيهدأ أوارها بعد فوات أكثر من ثلاث عشرة سنة على رحيل المفكر إدوارد سعيد؟! (١ نوفمبر ١٩٣٥ - ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٣). ربما كان السؤال عودة بالذاكرة إلى التاريخ القريب، الذى تكلله جرائم الصهيونية، وإرهاب الدولة فى بقاع غير محصورة من شرقنا المنكوب.

فمنذ أن نشر سعيد سيرته الذاتية لم تتوان الآلة الإعلامية المضادة عن ارتكاب حماقات ودسائس وأكاذيب، لأن نشر هذه السيرة تزامن مع ما سمى بـ"مفاوضات المرحلة النهائية"، التى كان يرفضها سعيد، والتى كانت تتناول حق العودة وقضية اللاجئين الفلسطينيين. وكانت سهام هذه الحرب تتوجه مباشرة إلى نفى وتكذيب سيرة سعيد الذاتية التى أشارت إلى أصله الفلسطينى، ولم يكن لقب بروفيسور الإرهاب سوى أحد الألقاب التى خلعتها تلك الصحافة على سعيد.

ولم يكن الموقف الراديكالى من التسوية الفلسطينية للمفكر الراحل سوى محفز قوى على تأجيج نيران هذا العداء، حيث

يصف سعيد اتفاقية أوسلو بأنها "استسلام جبان وانطراح متملق جاهل تمارسه القيادة الفلسطينية الراهنة"..، وقد شهدت جريدة الديلى تلغراف أعتى هذه المعارك التى خاضها عدد من المتعاطفين مع إسرائيل ضد سعيد، هذا المفكر الذى حمل الجنسية الأمريكية، في الوقت الذى يقول فيه:"إن تاريخ الإمبريالية ليعلمنا أنه ليس فى الوسع شيء سوى فكرة حقيقية للتحرير والمساواة يمكنها أن تقاوم قوة الإمبريالية وتصدها، وإنها لمأساة بحق أن جهلنا بالتاريخ وبالقوة الاستعمارية يبدو أنه علم مهندسي أوسلو الفلسطينيين أن الاستسلام الخانع المتذلل، مصحوبا بصرخات النصر الكاذبة قد يحققان النتيجة ذاتها التى تحققها حملة حقيقية من الاستنهاض والاستنفار والمقاومة، بلى إنها لمأساة وإهدار وضياع. بيد أن أجيالا من الفلسطينيين قد تستيقظ وتعى هذا الواقع".

على هذا النحو كان يرى إدوارد سعيد المسألة الفلسطينية فى لحظتها التسعينية، بكل مراراتها وانتكاساتها وهى رؤية تختلف جذريا عن منطق التسوية الراهن سواء كان متمثلا فى خارطة الطريق أو فيما قبلها. وهى خطط سابقة الإعداد

وبعلم جميع الأطراف، وما يتبقى هو التنفيذ المرحلى، أما مشكلة الشعوب مع قبول أو رفض مثل هذه التسويات فهو أمر كان يتكفل القمع والقهر والزمن بحله، بصرف النظر عن عوائد الشعوب من هذه التسويات. وعلى ذلك فإن الموقف يزداد تعقيدا كلما تسنى لمثل هذه المؤامرات أن تجد من يقوم على فضحها وكشفها، وإعادة صياغة القبح الذى تحتويه، لاسيما إذا كان هذا الكاشف يقع فى الأفق المفتوح والجديد للفكر العالمى المأزوم إزاء ما بعد الحداثة وتوابعها من جات زعولمة وسوق مفتوحة على مصراعيها، تأكل المستضعفين دون جهد يذكر. ولأن إدوارد سعيد يرفض تماما هذه القسمة غير العادلة، فإنه يدعو على نحو آخر لموقف أخلاقى وفكرى يتصدره الإيمان بالإنسان والحرية وضرورة التواصل والتفاعل والإثراء المتبادل بين الثقافات والمجتمعات والصراع ضد الاستعلائية والاستعمار والإمبريالية والهيمنة، والتسلط والمركزية الغربية، فهو يدين النظام الأمريكى والأنظمة الغربية لأنها ببساطة أنظمة تقوم بتبسيط وحماية مركزيتها، وتعتقد بواحديتها، ومن هنا فهى تعتقد بسلامة عقلها وحده.

ويؤكد إدوارد سعيد من خلال وضع يده على هذه التناقضات على ضرورة صياغة عالم جديد، مع الأخذ فى

الاعتبار هذه الفروق العقائدية التى تشكل تحديا أساسيا فى نظريات الحكم المختلفة، وهذه الصياغة تتدخل فيها بشكل مباشر مؤثرات المنشأ ورحلة الحياة التى دب خلالها سعيد على أرض الله إلى يومنا هذا.. إنها روافد متعددة، غنية وممتدة لا يقلل من شأنها لهاث الباحثين الصهاينة خلفها للتدليل على زيفها، وهو أمر ليس غريبا فى واقع الالتباسات الكبرى التى تحيط بالمفكر الراحل.

فقد انطلقت عاصفة من الهجوم على كتابه "الاستشراق" الذى ترجم إلى العربية عام ١٩٨١ باعتباره دفاعا مستميتا عن الإسلام وهجوما لاذعا ضد الغرب، وهو الفهم الذى أكد سعيد على نفيه أكثر من مرة، وأعاد طرح سؤاله فى مقدمته للترجمة العربية لكتابه"الثقافة والإمبريالية"- الذى صدر بالعربية عام ١٩٩٧ بترجمة للناقد كمال أبو ديب، ثم بترجمة أكثر أهمية للدكتور محمد عنانى، - هذا السؤال الذى وجهه المؤلف كسهم إلى العالم العربى على وجه التحديد، حيث يرى أن الاستشراق فى باكستان والهند وإفريقيا واليابان وأمريكا اللاتينية ساعد على إطلاق العديد من طرق الإنشاء الجديدة، وأساليب التحليل الجديدة وإعادة تأويل للتاريخ وللثقافة، فيما

ظل تأثيره العربى محدودا.. لماذا؟ إلا أن سعيد• عاد وطرح السؤال بمفهوم أشمل وأوسع فى"الثقافة والإمبريالية"لا سيما حول مفهوم أساسى هو السيطرة والمقاومة، وحول التاريخ والجغرافيا وحول استخدامات الثقافة ومحاولات التفكير بالتحرير، غير أنه رغم قراءة التاريخ عبر مفهوم السيطرة هذا، يؤكد على أهمية فكرة التعددية الثقافية التى تشكل الأساس العميق للهوية، والتى يرى أنها ليست بالضرورة تؤدى إلى السيطرة والعداء بل إلى نوع جديد من الحوار والتقاطعات. وليس غريبا فى هذا السياق أن يرفض إدوارد سعيد الدعوات الشوفينية المتطرفة التى يحملها متطرفون من أمثال صامويل هنتنجتون الذى حاول التأكيد على أن صدام الحضارات أمر واقع لا محالة، وهو ضد التقديس الأعمى لمفهوم الدولة الدكتاتورية التى تتحول إلى ثكنة عسكرية معادية للديمقراطية، وهو يوجه الحديث بالتحديد إلى الكيانات القومية الجديدة المستقلة حديثا من نير الإمبريالية ويؤكد أن المشكلة لم تكن مطلقا فى استبدال الشرطى الوطنى المحلى بالشرطى الأبيض الأجنبى، فالقضية أخطر من ذلك بكثير، وفى هذا السياق يستعيد مقولة"فانون"بضرورة تطوير الوعى

القومى بمعناه العُصابى إلى وعى اجتماعى يسهم فى بناء مجتمع مدنى متحضر، تلعب فيه الثقافة الدور الأهم.

والصورتان اللتان قدمهما سعيد للمجتمع العربى يبدو أنهما ساهمتا فى ثوراته الراهنة، فى الوقت الذى عاش يناضل فيه من أجل صياغة هويته الجديدة المستندة إلى الوعى الاجتماعى وليس إلى الإرث الجغرافى أو العرقى أو الاثنى.

وقد تبنى المفكر الراحل الرفض المطلق للفصل العنصرى أو التفرقة التى سادت بين الأبيض وغير الأبيض مؤكدا أن هذا السلوك هو أحد الأساطير الآثمة للإمبريالية ذاتها، أما الأخطر من ذلك فهو تأكيده فى كتابه"مسألة فلسطين"على أن الزيف والكذب والاحتيال الحقيقى هو ما فعلته الصهيونية والإمبريالية الغربية الكلاسيكية، بيد أنه يرى فرقا ضئيلا بينهما يتلخص فى أن الأولى أصبحت ممارسة تاريخية للقوة المستهجنة مدعومة بالمدد الإعلامى الضخم الذى لا يملك الفلسطينيون أو العرب إجابة على قوته، هذا إلى جانب الصداقة والمديح الغربيين اللذين عضدا هذا السلوك.

على جانب آخر يرى سعيد أن القراءة الكلية الغربية للعقل العربى يعتريها القصور الشديد، فالحديث عن هذا العقل

بنزوعه المزعوم إلى العنف، وثقافة العار فيه والتأريخ المفرط للإسلام من شأنه أن ينتج سياقات مغلوطة لصورة العقل العربي ودوره التاريخي، لذلك فإن سعيد لا يتورع عن اتهام"رافاييل بطي"وأمثاله بالتحيز، وهم الباحثون الذين أصدروا عددا من المؤلفات التي ترتدي مسوح البحث العلمي بينما هي كتب، كما يصفها سعيد، لم تكن أبدا خالية من العداء لطموح العرب الجماعي إلى التحرر من طوق الحتمية الاستعمارية، لذلك فليس مستغربا أن يحمل الخطاب الغربي نغمات عنصرية لوجهة النظر العربية التي تبدو معادية للديمقراطية، والمتهمة بالعنف والنكوص في آن واحد، هذا بالإضافة إلى إسرائيل التي قدمت نفسها كمركز ديمقراطي، وعليه فقد أصبح الفلسطينيون، الذين اغتصبت إسرائيل أرضهم وثرواتهم وشردتهم ونفتهم من وطنهم، ممثلين للإرهاب، وبهذا المنطق أصبح الجلاد ضحية لإرهاب قتلاه!! وليس غريبا في هذا الصدد أن يبدو موقف إدوارد سعيد أكثر راديكالية من كُتَّاب عرب كثيرين يعيشون بين ظهرانينا، ويأكلون خبزنا ويبررون المجازر الجماعية التي كانت ومازالت ترتكبها الأنظمة الحاكمة في الوطن العربي بالاشتراك مع

الإمبريالية الأمريكية، التى يراها سعيد تتأسس على فكرة رامبو الضخم فى مواجهة مجرمين عرب مسلحين ينهشهم اليأس نهشا.

وهو هنا يعيد التذكير بما تطرحه المؤسسة الأوروبية حول فكرة التاريخ المشترك والتهجين الذى يؤسس للتعددية، ويراها تجديدا وتذكيرا بأزمات الهوية التى دائما ما خلفت ميراثا هائلا من الدموية والعداء، وذلك لأنه ينطلق من أن جميع الدعوات التى أطلقت من قبل إعادة إنتاج هذا الخطاب دعوات غير جادة وتلفيقية ولا تعبر عن الواقع فى شىء، لذلك فهو يرى أن رموز الدعوة للاستقلال وتفكيك الاستعمار مستهدفون دائما، حتى أن تحقق فكرة الاستقلال بمعناها الوطنى والقومى لم تحقق الغرض منها، بعد انهيار ما يمكن تسميته بالمشاريع القومية، وهو الأمر الذى حال دون أصحاب الأرض ودون بناء ثقافة خاصة، ونجح الاستعمار فى تحويلهم إلى أثر، لم يستطع بعد استرداد الذاكرة.

ويضرب سعيد مثالا صارخا على ذلك بـ"أوبرا عايدة" كحالة تمثيلية، فهى بجانب أنها عمل عظيم للثقافة الأوروبية

هى فى الوقت نفسه محاولة لتأكيد الشرق وتثبيته مكانا غرائبيا، وقصيا وأثريا فى الجوهر، وبوسع الأوروبيين أن يقيموا فيه استعراضات للقوة، وهو الأمر الذى يؤكد فى الوقت نفسه طواعية الثقافة الأدنى وقابليتها للاندثار، وهى فى ذات الوقت عوالم صغرى تجسد الثقافة الإمبريالية الأرحب. إن أوبرا عايدة كما يراها إدوارد سعيد، "تجسد جلالا وسموا وهما أمران معقدان وهى فى جوهرها مسرحية من النزعات غير القابلة للتقليص بين المشروعية الأخلاقية ومطالب الحياة، فهى آخر الغناء العمومى والسياسى، وإن زيفا مثيرا للفضول يكتنفها بسبب المديح العالى الذى يغلف معظم مشاهدها، وكذلك الحدة وعلو النبرة والموسيقى العسكرية ولذلك فهى تجسيد لسيطرة التجربة الإمبراطورية". ويؤكد ذلك - حسب سعيد - أن فيردى مؤلف الأوبرا لم يكن يعلم شيئا عن مصر ولا إفريقيا التى كتب عنها هذا العمل، وهو يقول فى إحدى رسائله فى عام ١٨٦٨ إلى صديقه "كميل دو" الذى كان فى رحلة إلى الشرق: "حين نلتقى يجب أن تصف لى جميع أحداث رحلتك، العجائب التى رأيتها وجمال وبشاعة بلد كانت له ذات يوم عظمة وحضارة، لم أجد نفسى

أبدا قادرا على الإعجاب بهما" وكان يقصد مصر بالطبع، وقد رفض فيردى فيما بعد تلبية عرض الخديوى إسماعيل بأن يكتب ترنيمة من أجل مناسبة افتتاح الأوبرا فى أول (نوفمبر) ١٨٦٩ إبان الاحتفالات فى افتتاح قناة السويس.

ويفسر إدوارد سعيد هذه الوضعية اللامبالية والجارحة ، حسب تعبيره، بأنها مفهوم إمبريالى للفنان مع مفهوم إمبريالى لعالم غير أوروبى لم يكن له أية مطالب سوى فى الحدود الدنيا، ولذلك كان الفرنسيون يريدون وضع مصر فى نماذج ورسوم تدل عليها مما تضمنه كتاب "وصف مصر" الذى يعكس صورة الحضارة المتهدمة التى توحى مباشرة بأهمية العمل الأوروبى، وفى الوقت نفسه رداءة واندثار المصرى الحديث، وهو ما دفع الفرنسيين إلى إعادة مسرحة الواقع الفعلى فى مصر القديمة بعد إعادة فك شامبليون الرموز اللغوية المصرية، ثم انتزاعها من سياقها ونقلها إلى أوروبا، وقد استمر هذا الحال من عام ١٧٩٨ إلى ١٨٦٠ وهى عملية فرنسية محضة.

ويؤكد إدوارد سعيد أنه رغم المكانة المتميزة لمصر عبر القرن الثامن عشر كما وصفه ـ مارتن برنال ـ فإنها مكانة

ارتبطت دائما بالغرائبية فقط، رغم أن شامبليون وماريت وأوروبا كلها يعترفون بأن مصر كانت هى التأثير الشرقى الأول والجوهرى على الغرب. هكذا كان يرى إدوارد سعيد النظرة الإمبريالية لواقع العالم الجديد الذى نشأت أطروحاته مدججة بالقوة المسلحة، واستمرت على هذا النحو رغم تغيير المراكز.

سلامة موسى.. وسؤال النهضة

لايزال سؤال النهضة، الذى طرحه سلامة موسى وقبله رواد الاستنارة الأوائل منذ دولة محمد على فى مطالع القرن التاسع عشر، يملك من الحيوية ما يدفعه إلى صدارة المشهد فى الثقافة العربية رغم مرور ما يربو على القرنين منذ بعثة رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا وإصداره "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" عقب عودته من البعثة فى عام ١٨٣١، فالدولة الحديثة التى حلم بها موسى وأسس للكثير من قواعدها النظرية فى العشرات من كتبه لا تزال تعانى عوارض التخلف. وقد ربط موسى بين تخلف الأنظمة السياسية فى العالم العربى وبين النماذج الطوطمية التى عبدت الماضى وحالت دون استطرادات الحاضر بل وحاربت دون بقائه. وقد كانت المعارك التى خاضها وخيضت ضده من عشرات المفكرين والكتاب شاهدا على مساحات النكوص التى نعانيها حتى أيامنا. وإذا كان العدو الأساسى الذى يملك قوة رمزية طاغية، وهو الفقه الماضوى، ظل يمثل للرجل معضلة فكرية كبرى فهو فى ذلك لم يختلف عن رواد التنوير فى كل بقاع

العالم لاسيما فى الغرب المسيحى الذى أدانه موسى نفسه، كما أدان كل من حاول أن ينزع الرباط غير المقدس بين الدين ممثلا فى كهنته وبين البشر الذين تحولوا إلى عبيد لنصوص فى رأس كهنتهم لا أكثر.

لقد كانت العبودية التى نغّصت حياة سلامة موسى هنا هى عبودية العقل، ويضرب مثالا على ذلك بتلك الخطابات التى كان يبشر بها كهنة القرون الوسطى؛ حيث يشير إلى أن انشغالهم كان عادة ينصرف إلى الحياة الآخرة دون الحياة الدنيا عبر قضايا فارغة لا معنى لها مثل مكان الروح فى الجسد، أو الدلالة التوراتية للرقم ٧ أو أعداد الملائكة الذين يمكنهم أن يقفوا على رأس إبرة. لذلك بدا احتفاء سلامة موسى فى كتابه "ما هى النهضة" برموز الشك المسيحى مثل فرانسيس بيكون وغيره من كبار الفلاسفة من مختلف التوجهات كأنه الرد الأبلغ على أَحْكَار رجال الدين واستبدادهم بعقول الناس. وفى الوقت الذى اتهم فيه سلامة موسى من أعدائه بأنه مناهض للحضارة العربية فى صيغتها الإسلامية احتفى بالأدب الأندلسى، وتحدث فى أكثر من موضع عن تأثيره على الأدب الأوروبى، وكذلك تأثيرات اللغة

العربية فى اللغات الأوروبية، ليس هذا فحسب بل احتفى بتأثيرات العلوم العربية لدى ابن سينا وابن الهيثم والخوارزمى فى العلوم الأوروبية.

لقد ذهب موسى إلى مفهوم النهضة فى مظانه الجوهرية التى تبدأ بالأبنية العقلية الحرة من كل قيد لاسيما قيد الفقه الدينى، لذلك كان خطابه حادا ضد كل أشكال السلفية، حيث دعا للاختلاط بين الجنسين وإلى تحرير المرأة وإلى تخليص التعليم من الغيبيات وتحويل الجامعات إلى منابر علمية محضة ورفض التعليم الدينى بكل أشكاله باعتبار الدين حالة إيمانية قلبية؛ ومن ثم فلا يجب أن تحوله الدولة إلى معرفة منهجية. من هنا كانت اهتمامات موسى بالعلم لاسيما لدى داروين فى نظرية التطور، وفرويد الذى هز قناعات الإنسان باعتباره مركز الكون، وكان فى الوقت نفسه من أتباع ماركس وكتب أول كتاب مصرى عن الاشتراكية لكنه لم يكن يؤمن بثورة أكتوبر ١٩١٧، وكان يرى مع الفابية الإنجليزية أن الثورة يجب أن تكون مرحلية وبلا دماء. وقد كانت حدة موسى فى معالجة قضيته سببا فى تأليب الكثيرين عليه لاسيما من يمتهنون حرفة الأدب، فكان صدامه حادا مع

مصطفى صادق الرافعى الناثر العظيم الذى كان مستمسكا بقواعد النثر الجاحظية وهو ما كان يمقته موسى، بل واعتبر أن التمسك بالعربية الجاحظية واحدا من أسباب تخلف أمتنا، وطالب باستحداث لغة تداولية يومية من العاميات المحلية لحل مشكلة الأمية، ومن هذا المنطلق كان احتفاؤه بالأدب الشعبى وسخريته فى الوقت نفسه من مناهج النقد الحديث مثل مدارس الفن للفن وغيرها.

ولم يكن من قبيل الدعابة ذلك الانتقاد الحاد الذى أطلقه أنيس منصور ضد القناعات الفكرية لسلامة موسى عندما قال:"دين سلامه موسى له أقانيم ثلاثة: ماركس الأب وداروين الابن وفرويد الروح القدس، إنه رجل تركنا إلى حين وموعدنا معه بعد مليون سنة". وأنيس ليس فريدا فى هجومه على موسى فهو ربيب عباس محمود العقاد وربيب موقفه الفكرى الذى اتسم، بعد الحرب العالمية الثانية، بالكثير من الرجعية، حيث العقاد نفسه يقول عن سلامة موسى "إنه يكتب ليحقد ويحقد ليكتب ويؤمن بالمذاهب ليتربح منها". هذه مواقف طليعة كانت فى مقدمة الصفوف ثم تغيرت مآلاتها فى النهاية. فالأول ذهب إلى مخاطبة الخرافة والأرواح الشريرة وقضى

سنواته الأخيرة كفلكى فقد بوصلته، أما الثانى فقد بدأ ثوريا متأثرا بالثقافة الإنجليزية ثم انتهى رجعيا وكان حجر عثرة فى وجه الفكر الجديد بعامة والفنون على نحو أخص.

لم يعبأ موسى بكل تلك الحروب الشرسة التى اتهمته فى وطنيته، وواصل عطاءه الفكرى والفلسفى برشاقة وبساطة لغته الأخاذة، فقد كانت الميول الفلسفية الغالبة على اتجاهات سلامة موسى تضعه فى صفوف المفكرين والفلاسفة. وسؤاله عن "ما النهضة؟" يحمل من المقولات الحية المتجددة ما يبعث الروح فى كل حرف كتبه. فكل القيم التى حذر منها فى كتابه هذا بل وفى عشرات من كتبه الأخرى لم تلق إجابة من واقعها الذى لم يزل مريضا. كان سلامة موسى الذى عاش فى سن مبكرة فى فرنسا وإنجلترا، وتعرف على أهم مدارسهما الفكرية تواقا إلى الخلاص من تركة الميتافيزيقا وسيطرة الدين على شؤون حياتنا، وقد ذكر فى أكثر من موضع فى كتابه "ماهى النهضة" أن الذين يعملون على تسخير الناس لخدمة الدين يخدمون فى الحقيقة الحياة الثانية بينما الإنسان لابد أن يكون هدفه الأسمى سعادة البشر، ولن يحدث ذلك إلا بتحريرهم من سلطة رجال الدين. ورغم

انسحاب حديث سلامة موسى على المسيحية والإسلام فإن كثيرين اتهموه بأنه مجرد نصرانى يستهدف هدم الإسلام وتخريب عروبة مصر.

كان سلامة موسى مؤسس أول حزب شيوعى مصرى مع محمد عبد الله عنان عام ١٩٢١، أى قبل إعلان تشكيل حركة الإخوان بأكثر من سبع سنوات. كانت دعوة موسى فى جوهرها سعيا دءوبا ومخلصا لتشكيل إطار مجتمعى متعلم ومتحرر من ربقة الغيبيات يمثل فى النهاية الصيغة الوطنية المصرية بكل ثوابتها التاريخية، لذلك طالما حذر من توجيه الخيال المجتمعى نحو معرفة أيديولوجية تمايز بين البشر على أسس دينية، وتعيد صناعة التراتب الاجتماعى عبر نافذة تفتقد إلى أدنى القواعد الأخلاقية والإنسانية. وقد كان إيمان موسى بالفابية الإنجليزية واحدا من قناعاته الأهم بضرورة دمج الطبقات دون دماء لتحقيق العدالة الاجتماعية. ورغم قناعاته الاشتراكية فإنه كان يدعو لضرورة ربط مصر بالحضارة الغربية وإبعادها عن محيطها العربى ليس بهدف تدمير إسلامها، كما روج لذلك خصومه الذين اتهموه بأنه ممثل جديد للحروب الصليبية، بل لأنه كان يرفض اختصار

الميراث الحضارى المصرى الباهظ فى حقبة الفتح العربى فى زمن يستحيل فيه أن تحوز مثل هذه الأفكار الأحادية إجماعا علميا مقبولا فى حده الأدنى، ما يعنى ببساطة، فى رأيه، إصرارا على البقاء فى أحضان الكهانة الدينية. كان موسى يرى أن مشكلة المعرفة الدينية تفتقر إلى أدنى الحدود العلمية المستقرة، ويرى القرون الوسطى جميعها قرون انحطاط حتى أنه وصف المسيحية نفسها بأنها زادت من تفاقم كارثة العقل والاستبداد باسم الدين ويقول هنا: "إن المسيحية كافحت المدارس القديمة وحاربت العلماء وانحصرت الثقافة عندئذ فى صوامع الرهبان، وهؤلاء لم يقصدوا منها سوى غاية واحدة هى خدمة الدين وهذا هو الانحطاط". إن مشكلة موسى تظل مع ما يسميه العقائد الجزمية أو الأحادية والإقصائية بلغة عصرنا.

والمؤكد أن النموذج العقائدى الذى استهدفه موسى فشل عبر التاريخ فى إنتاج نموذج معرفى عقلانى، لأنه ببساطة يقوم على تعزيز التفرقة بين البشر على أسس دينية. وقد أدى تسييد هذا النموذج فى عصور الانحطاط، التى لازلنا نعيشها بكل أسف، إلى تهميش القطاعات الأوسع من البشر لاسيما

أن كثيرين من هؤلاء، حسب تعبير موسى، يؤمنون بالحكومات الليبرالية. وكما أشرنا كان احتفاء موسى بنموذج الحضارة المصرية جزءا لا يتجزأ من اعتقاده بأن محاولة تسييد النموذج الفقهى ذى المرجعية القبلية هو نموذج تجاوزته المرجعية المصرية المتعددة بطبيعة تكوينها القديم والحديث وبتركيبها الحضارى. ولأن موسى كان واحدا من أقلية عددية مسيحية كان يرى أن جزءا من مساوئ النموذج الدينى يكمن فى تصاعد مأزق تهميش الأقليات لاسيما الأقليات الدينية، حيث يستمر التعامل معها باعتبارها طابورا خامسا، جاهزا لاستدعاء الأجنبى فى اللحظة المناسبة، رغم أن السياق العام الذى رسخته "الأقلية القبطية" طيلة تاريخها وفى مجمل تكويناتها، لايزال لصيقا بمفاهيم وطنية خالصة رفضت كل محاولات التواطؤ مع الأجنبى.

واستمرار تلك المعتقدات والمفاهيم فى رأى موسى كان يعنى إذكاء الصراع العقائدى والطائفى لضمان هيمنة رجال الدين، وما حذر منه سلامة موسى قبل أكثر من سبعين سنة يتحقق الآن فى إنتاج نموذج متطرف فى المرجعيتين الإسلامية والقبطية على السواء.

ومن عجب أن نجد، حتى يومنا هذا، ورغم فداحة الجريمة التى كشفت عنها الثورات العربية، ثمة مفكرون يتحدثون عن ضالة قديمة جديدة هى إمكانية تلاشى المسافة بين "التعبد والتدبر" أى بين السياسة والدين. والحقيقة أن العدالة التى كان ينشدها موسى لا يمكن لها أن توجد فى ظل تاريخ من العمل بالسخرة لصالح الحق الإلهى ثم لصالح الإقطاع ثم رأس المال فى معظم الأحايين. وعندما كانت لجنة وضع الدستور التونسى بعد الثورة تعمل على إخراج دستور لدولة مدنية تحدث رئيس اللجنة المفكر التونسى"عياض بن عاشور" بدهشة بالغة، عن رجل الدين الذى يستمسك بثيوقراطيته دفاعا عن ضرورة إخضاع"المدينة الأرضية" لأحكام وأخلاقيات وقوانين الشريعة عن طريق الدولة الحاكمة بالنص. تسائلا: إنه لا سبيل للمواءمة بين الثيوقراطى والديمقراطى الحقيقى المقتنع بقيم الحرية والتعددية، فالتقاؤهما لا يكون إلا تكتيكيا مؤقتا.

إن لحظتنا الراهنة تذكرنا باستحقاقات فائتة وديون ثقيلة فى رقابنا لسلامة موسى. فقد ظل الإجماع غائبا حتى يومنا على مفاهيم جوهرية مثل مدنية الدولة وعلمانيتها، ومرجعيتها

الدينية وموقع الآخر فيها، ونظامها السياسى والاقتصادى فى ظل تعريفات رجراجة لمفهوم ساءت صدقيته هو العدالة الاجتماعية، كذلك فى مواجهة مفهوم الهوية الذى يطل برأسه من جديد، بعد أن عاشت عليه الدولتان الدينية والربوية بشكل نسقى ومتواتر لعشرات السنين.. فهل أخطأ سلامة موسى عندما تحدث عن ضرورة إقصاء الفقه الأسود؟!.

منذ مولد سلامة موسى عام ١٨٨٧ فى قرية بهنباى بمدينة الزقازيق شمال شرق القاهرة بحوالى تسعين كيلو مترا ورحيله عن دنيانا فى الرابع من أغسطس عام ١٩٥٤ وتحديدا منذ عودته من رحلتى باريس ولندن ظل واحدا من قادة الفكر الحر، فهو من أوائل الذين قدموا كتاب "رأس المال" لماركس وهو رائد الاشتراكية المصرية ومن أول المروّجين لأفكاره. كانت رفقته لأحمد لطفى السيد واحدة من المفاصل المثيرة فى حياته حيث تلاقيا معا فى البحث عن حلول لتزايد أدوار اللغويين التقليديين الذين كانوا يجذبون العقول الحرة إلى إسار الماضى، وكانت نداءاتهم بحتمية تبسيط اللغة العربية وقواعد نحوها والاعتراف بالعامية المصرية مطالب أقضت مضاجع المحافظين. وبسبب تلك

الحروب المتزايدة اضطر موسى فى النهاية إلى إعلان دعوته المصريين للكتابة بلغتهم العامية.

كان المأزق الحياتي لسلامة موسى كبيرا. فقد مات والده بعد عامين من مولد الابن الذى التحق بمدرسة قبطية، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية بالزقازيق حتى حصوله على شهادتها. انتقل موسى بعد ذلك إلى القاهرة حيث التحق بالمدرسة التوفيقية ثم المدرسة الخديوية حتى حصل على شهادة البكالوريا (الثانوية) سنة ١٩٠٣، وعندما تفاقمت المشكلات العائلية على سلامة موسى بعد حصوله على شهادة البكالوريا سافر إلى أوروبا فى عام ١٩٠٦، وكان آنذاك فى التاسعة عشرة من عمره. قضى سلامة ٣ سنوات فى فرنسا تعرّف من خلالها على الفكر والفلسفة الغربيين، وتعرف على فولتير وتأثر بأفكاره كما قرأ لكارل ماركس ومؤلفات للعديد من الاشتراكيين، كما أنه اطلع هناك على ما توصّلت إليه علوم المصريّات.

بعد أن قضى ثلاث سنوات فى باريس انتقل إلى إنجلترا لدراسة الحقوق، حيث عاش أربع سنوات أخرى، لكنه أهمل دراسته وانصرف إلى القراءة، وانضم إلى جمعية العقليين

والجمعية الفابية والتقى فيها بالمفكر والمؤلف المسرحى الأيرلندى جورج برنارد شو، وتأثر بتشارلز داروين وخصوصا نظريته حول النشوء والارتقاء. بعد أن عاد إلى مصر من باريس أصدر كتابه "مقدمة السوبر مان" سنة ١٩١٠، الذى تضمن بدايات لأفكاره التى تطورت بعد ذلك والتى ركزت على ضرورة الانتماء الكامل للغرب وقطع أى صلة تربط مصر بالشرق، وتضمن نقدا للفكر الدينى والإيمان الغيبى، إذ أورد فصلا فى هذا الكتاب تحت عنوان "نشوء فكرة الله" متأثرا بأفكار الكاتب الإنجليزى جرانت ألين حيث ينطلق من أساس مادى لفهم الكون، كما أنه تأثر ببعض الأفكار العنصرية التى كانت سائدة فى بعض الأوساط الغربية فى تلك الفترة؛ حيث دعا إلى أن يتزوج المصريون من غربيات لتحسين نسلهم، وردد بعض المقولات العنصرية عن الزنوج حيث اعتبرهم من أكلة لحوم البشر. كذلك أصدر أول كتاب عن الاشتراكية فى العالم العربى سنة ١٩١٢، كما أصدر هو وشبلى شميل صحيفة أسبوعية اسمها "المستقبل" سنة ١٩١٤، لكنها أغلقت بعد ستة عشر عددا، كما ساهم هو والمؤرخ محمد عبد الله عنان فى

تأسيس الحزب الاشتراكي المصرى عام ١٩٢١، ولكنه انسحب منه رافضا الخضوع لأية قيود تنظيمية وذلك إثر خلافات كانت قد أثارتها نقده لثورة أكتوبر ١٩١٧، فاعتزل الحياة السياسية، واكتفى بالنشاط الفكرى، حيث رأس مجلة الهلال عام ١٩٢٣ لمدة ست سنوات.

فى سنة ١٩٣٠ أسس المجمع المصرى للثقافة العلمية، وأصدر مجلة"المجلة الجديدة"وكان يهدف من خلالها إلى تغليب الاتجاهات العلمية على الثقافة العربية، لكن حكومة صدقى باشا أغلقت المجمع، فقام سلامة بتكوين جمعية المصرى للمصرى وتبنت هذه الجمعية مقاطعة البضائع الإنجليزية، مستلهمة فى ذلك تجربة الزعيم الهندى غاندى.

تركة سلامة موسى فى التأليف والترجمة لا تنفد، وقد أصدر حوالى أربعين كتابا من أهمها: "الاشتراكية" و"مقدمة السوبر مان"، و"حرية العقل فى مصر"، و"النهضة الأوروبية"، و"الدنيا بعد ثلاثين عاما"، و"حرية الفكر وأبطالها فى التاريخ"، و"أحلام الفلاسفة"، و"المرأة ليست لعبة الرجل"، و"هؤلاء علمونى"ودوّن سيرته الذاتية فى كتابه"تربية سلامة

موسى"، كما أصدر عددا من المجلات، وكتب الكثير من المقالات.

إننا اليوم ونحن نعيد قراءة كتاب سلامة موسى:"ما هى النهضة"؟ فإننا نؤكد أن حاجتنا إليه لازالت ماسة، لأن جوهر ما نادى به لازال حيا ولازال يمثل عصبا عاريا ولازال أيضا يجد مقاومة شرسة من محافظين ورجعيين ورجال فقه وكهنة وإرهابيين، جميعهم يلتقون على تأميم العقل لصالح الخرافة باعتباره ضرورة لبقاء تحالفات هى فى جوهرها ضد الإنسان حتى وإن تنادت باسمه.

نوال السعداوى..
مبدعة ضد نفسها!

الجلوس بين يدى نوال السعداوى أمل وحلم بعيد المنال، فمنذ الجامعة ونحن نقرأ كتبها لنشبع رغبتنا العارمة فى التحرر من أسر سلطات متعددة ومركبة. سلطة المجتمع المحافظ الذى يقيم الحواجز بين البشر عبر مئات النواهى، سلطة الدين التى يبتكر رجالها عشرات الأفاعيل وأطنان الفتاوى للسيطرة على الفضاء العام بالحفاظ على سلطة الماضى وتقديسها ودفع الناس إلى ذلك، سلطة السياسة الغاشمة التى كانت نموذجا للقهر والقمع، سلطة الجسد التى كنا نخشى الاقتراب منها خوفا من قائمة طويلة من الآثام التى تضج بها مدونة الثواب والعقاب.

كانت كتب السعداوى، رواياتها، حضورها النضالى، كل ذلك كان طريقا تحفرها من أجل أجيال طالعة لا تعرفها ولم ترها.

عندما تلقيت دعوة كريمة من الدكتورة السعداوى لزيارتها فى بيتها تحقق حلم كان بعيد المنال. كنت أتصور أنها وهى، بنت الرابعة والثمانين حيث ولدت فى"السابع والعشرين من

أكتوبر عام ١٩٣٠"، قد خبا أوارها، وانطفأت جذوتها. التقيتها للمرة الأولى فى شقتها الصغيرة الأنيقة بمنطقة شبرا قرب النيل، كان بصحبتى الناقد الصديق يسرى عبدالله. فاجأتنا بمساحات الحيوية البادية والتفتق الذهنى وزخم الحضور الفكرى والإنسانى. أول ما لفت انتباهى هو رغبة مضيفتنا المتكررة فى أن نتكلم عن نفسينا: أفكارنا، مرجعياتنا، كيف تشكلنا، كيف وصلنا إلى ما نحن فيه، الأحرى: كيف وصلنا إلى بيتها؟ كان الحديث على خلفية مقال بجريدة الأهرام لكاتب هذه السطور تحت عنوان"الإلحاد ورجال الفقه الأسود"قرأته السعداوى، أعجبها، فلم تتراجع عن الاتصال بشخص فى عمر أبنائها لتبدى الكثير من الثناء ثم تدعوه للقائها. ما رأيته أمامى كان يعنى أننا أمام نموذج إنسانى فذ لا يقل نصاعة عن النموذج الذى قدمته السعداوى كمفكرة ومبدعة ومناضلة. إنكار الذات كان خلفية صادقة لحديثها، فهى تبحث عن شباب وشابات يقيمون تجمعاتهم ويناضلون من أجل تحقيقها، تحث شباب المبدعين على إقامة حلقاتهم النقاشية لتطوير أدواتهم وأفكارهم. كنا شغوفين بالاستماع إليها، إلى تاريخها. كان حديثها ممرورا عن ذلك

التجاهل المتعمد والإقصاء الذى مورس ضدها على خلفيات سياسية ودينية. ورغم أنها كانت تعرف طريق السلطة وتملك من الذكاء والقوة ما يمكنها من ذلك فإنها تمسكت بحريتها بعيدا عن أى سلطة مما دفع يوسف إدريس ذات مرة لأن يقول لها: "لازم يا نوال تعملى كوبرى يودى للسلطة، غير كده عمرك ما هتكونى روائية كبيرة"، لكن موقفها ظل لا يتغير من السلطات المتباينة فى المجتمع. صحيح هى من داعمى ثورة الثلاثين من يونيو ٢٠١٣ لكنها لازالت تحمل الكثير من التحفظات على الأداء السياسى ومساحات الحرية المتاحة لشباب الثورة.طبعا كانت قضية المرأة كمناضلة ومبدعة وإنسانة ومواطنة واحدة من القضايا الجوهرية التى تعتبر السعداوى واحدة من رائداتها بامتياز. وهى فى ذلك تتمثل تاريخا باذخا تركته رائدات سابقات، عبر نضالات ممتدة وصعبة. فلا شك أن صورة المرأة المصرية، المبدعة والمفكرة، تغيرت مع صعود مشروع التنوير منذ عودة رفاعة الطهطاوى من باريس وإنشائه أول مدرسة لتعليم البنات. ولم يكن غريبا أن تستقبل ساحة العمل الفكرى والاجتماعى أسماء بارزة ومؤثرة فى حياة الأمة مثل هند نوفل التى أصدرت أول مجلة

نسائية فى الإسكندرية عام ١٨٩٢، وكذلك أسماء مثل: وردة اليازجى، عائشة التيمورية، زينب فواز، وأخريات.

وسط هذه الكوكبة من المبدعات ما من شك فى أن التراث الإبداعى للدكتورة نوال السعداوى كان وسيظل واحدا من أعلى تمثيلات الصورة الطليعية للإبداع المصرى والعربى على السواء. فقد استطاعت، بإرادة فردية وضد كل النواميس والأصفاد والقيود الثقيلة على المستويين السياسى والاجتماعى، أن تفلت من أسر محاذير القبلية والفقه البدوى، ومن يتذكر كتابها الرائد فى أدب السيرة الذاتية "مذكرات طبيبة"، الذى صدر فى مطالع ستينيات القرن الماضى، سيرصد تلك الاجتراءات غير المسبوقة فى فضح واقع متكلس ومريض، وهى القضايا التى قامت بتعميقها فى كتابها المهم والمؤثر "المرأة والجنس"، وأذكر جيدا كيف كنا نتبادل هذا الكتاب كمنشور سرى داخل أسوار الجامعة، فقد كان يمثل لنا إنجيلا جديدا لمعرفة محجوبة حول تلك التفاحة المحرمة ألا وهى المرأة؛ تلك التى يطلبها الجميع ليس باعتبارها كائنا مكتمل الإنسانية بل باعتبارها وعاء من أوعية الشهوة. وهنا

لابد من الإشــارة إلى الوعى العــضــوى للدكــتــورة نوال السـعداوى فى إطار مـفاهيم الوظيفة الإبداعية التى تدرك دورها جيدا، وتدرك قيمة دورها ومحوريته فى إطار مفهوم الالتزام بمعناه الجمالى، لذلك كان وسيظل نموذج السعداوى، إبداعيا ونضاليا، يمثل شكلا من أنبل أشكال المقاومة. وقد استمرت حيوية ذلك المشروع حتى لحظتنا بكل ما يتوافر للإبدا ع من قوة رمزية.

وعندما نتوقف أمام المدونة الإبداعية للسعداوى فسيكون من التعسف فصلها عن الموقف السياسى والاجتماعى. ويمكننا أن نرصد تلك الصورة فى عشرات الروايات فضلا عن الكتب الفكرية. فقد أصدرت ما يربو على الستين كتابا بين الرواية والفكر والسياسة بدأتها بكتابها مذكرات طبيبة ١٩٦٠ ثم جاء كتابها الأخطر الذى ألب عليها السلطات وهو"المرأة والجنس"١٩٦٩. وكان سببا، إلى جوار نشاطها السياسى، فى فصلها من عملها كطبيبة عبر ستة قرارات من وزير الصحة آنذاك، وكان معها فى قرار الفصل زوجها السياسى والروائى شريف حتاتة. وعندما اعتقلها السادات فى أحداث سبتمبر ١٩٨١ التى سبقت اغتياله بوقت

قليل قدمت كتابها" مذكراتى فى سجن النساء"وقد سبق هذا الكتاب وتلته بمجموعة من الكتب حول قضية المرأة مثل كتبها: "قضايا المرأة المصرية السياسية والجنسية، معركة جديدة فى قضية المرأة، اثنتا عشرة امرأة فى زنزانة. هذا فضلا عن عشرات الروايات التى تدعم قضيتها الفكرية وتعزز رؤيتها الناقدة للواقع. وهنا أحب أن أتوقف أمام عمل بين أخطر وأهم أعمال كاتبتنا بل هو واحد من أكثر رواياتنا جرأة وتمثله أفضل تمثيل روايتها "سقوط الإمام"، وهى الرواية التى صادرها مجمع البحوث الإسلامية منذ صدورها. فانحيازات الكاتبة التى تذهب إلى إدانة مطلقة لكل صور القمع والعسف تتبدى منذ الإهداء الذى يذهب إلى الإيرانية"شهربانو شيراز" التى تم اغتصاب طفلتها فى السجن ثم السودانية"فاطمة تاج السر" التى قطعت السلطات يد طفلها بتهمة السرقة تحت راية الشريعة ثم"كوليت عيتانى" اللبنانية، و"فاطمة محمود" السجينة المصرية التى عرفتها كاتبتنا فى السجن عندما تم القبض عليها فى أحداث سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة التى كانت بداية النهاية للرئيس الراحل أنور السادات.

مطلع الرواية مدهش بكل المقاييس. فعبر عدة جمل شديدة التكثيف والابتسار تلخص الكاتبة موقفها من فكرة الإلوهية، حيث الإله بالنسبة لها ليس تلك الكتلة الميتافيزيقية الرهيبة التي تُرتكب باسمها المجازر والحروب ويساق باسمها العبيد إلى المحارق. الإلوهية بالنسبة للسعداوي توجد في وجوهنا وأفعالنا وفي مدى مطابقة نواهي تلك الإلوهية لسلوكياتنا اليومية الفطرية أو المدبرة. يمثل الإمام الشخصية المحورية في الرواية. وهو حسب تسلسل الأحداث يتمتع بربوبية مطلقة، فهو لا يضعف ولا يموت، ولا يرد له أحد أمرا، ولا ينطق عن الهوى، ترتكب أعتى الفواحش باسم الله وباسم كتبه ورسله، وهو في حقيقته ليس وحيدا بل هو متعدد وموجود في كل مكان، حيث يوجد في أشباه يقومون بأدواره ويموتون نيابة عنه ومعهم مفاتيح الجنة، موجود في العسس والعيون المتناثرة في كل حي وزقاق يحصي على الناس أنفاسهم، موجود في صورة قضاته، وكتابه، ورجال أمنه، ورجال دينه، وتجلياته لا تنتهي، فهو، كما تعبر كاتبتنا، ظل الله على الأرض والحاكم باسمه. أما الشخصية الرئيسية الأخرى فهي شخصية "بنت الله" وهذا هو اسمها. تلك البنت

الموصومة بأنها نبت شيطانى لأنها، كما توصف، بنت زنا، فقد مات أبوها وهى رضيعة، أما المفاجأة فإن الإمام نفسه هو من اغتصب أمها ورغم علمه بأنها ابنته يتزوجها فى أحد محطات الحدث الروائى، ثم بسبب مروقها ورفضها لواقعها تقتل فى نهاية الأمر وتصدر الأوامر بدفنها ودفن كل ملفاتها معها. ربما لتلك الأسباب لا تتراجع المؤلفة عن وصف الإمام فى مقدمتها الروائية بأنه شخصية زئبقية. وهو وصف ينطبق أيضا على معارضيه، حيث الحياة السياسية تنقسم إلى حزبين: حزب الله ويمثله الإمام وصفوته، وحزب الشيطان الذى منه تلك الشخصيات الهزلية مثل المعارض الشرعى والكاتب الموصوف بالكبير، وهى معارضة مهمتها الوحيدة التبرير للسلوك السلطوى الأكثر من خشن.

إن نبوءات السعداوى قبل وبعد روايتها "سقوط الإمام" تعد نبوءة مبكرة بثورتين كبيرتين هبت ريحهما علينا فى الخامس والعشرين من يناير والثلاثين من يونيو. فالواقع الذى ترصده الرواية هو الواقع نفسه الذى كانت تقاومه الكاتبة وتشهد مجازاته اليومية الثقيلة فى مواجهة سلطات غاشمة يمثلها الحكم العسكرى أحيانا ويمثلها تحالف رجال السياسة مع

رجال الدين فى معظم الأحايين، وهو واقع كابوسى لازال جاثما، واقع رفضت كاتبتنا أن تكون إحدى ضحاياه، فقاومته ولازالت تقاوم.

لقد تعرضت نوال السعداوى للسجن والمصادرة والإهمال العمدى وأقيم ضدها العديد من دعاوى التكفير ورفض مجلس الدولة دعوى بإسقاط الجنسية عنها. ودفعت ثمنا باهظا لمواقفها. ولاشك أن التاريخين الإبداعى والنضالى للدكتورة نوال السعداوى اللذين أهملهما النقد بدوافع أخلاقية وسلطوية بغيضة بات يتجاوز أعناق هؤلاء من قصار القامة بحيث بات يمثل واحدة من مخازيهم. ورغم هذا التاريخ من العسف، فنحن بكل تأكيد نقف اليوم بين يدى واحدة من أيقونات الإبداعية المصرية والعربية بل العالمية.

محمد حسنين هيكل..
مفكر أكبر من حكّامه أم مؤلف لجمهوريات الخوف؟!

لم تخل السجالات الفكرية والسياسية فى مصر، فى كل مراحلها، من اسم الكاتب والصحفى الكبير محمد حسنين هيكل. فهو القادر دائما على اختيار وقت الظهور ووقت الاحتجاب. يعرف، عادة، خصومه بأكثر مما يعرفونه مهما تصاغر شأنهم، ويعرف أصدقاءه بنفس الدرجة من الإتقان. هذه خيارات هيكل التى تعاظمت واستعصى عودها فى أندر المدارس الصحفية العربية والعالمية. إنها مدرسة "الأستاذ" كما يلقبه تلامذته فى مصر وخارجها. من هنا لم يكن من النادر أو الغريب أن تكون شخصية هيكل بين أكثر الشخصيات السياسية والفكرية إثارة للجدل والسجال. فهو خليط معقد من مدارس سياسية وفكرية وصحفية تبدو متناقضة للوهلة الأولى. ففى حين أنه تربى فى مدرسة روزا اليوسف الصحفية ثم فى مجلة آخر ساعة ضمن مدرسة على ومصطفى أمين ومحمد التابعى إلا أنه أسس مدرسته الصحفية العريقة على النقيض من عقيدتهما الصحفية التى

تقوم على الفهم الشعبوى الذى يمجد الجماهير بما هى عليه، وهذا النوع من الصحافة لا يأبه عادة بالدور الارتقائى للرسالة الصحفية ويتعامل مع الوعى الأفقى للجماهير بدرجة عالية من القبول، لذلك سنجد تلك الصحافة تعتمد على تعظيم المستقر داخل الناس ومخاطبتهم به لضمان ولائهم، من ثم تبدو الإثارة والبساطة مذهبا جوهريا هنا.

فى حين أن مدرسة هيكل تتأسس فى جانبها الأعظم على ارتباطها بمشروع الحداثة الذى كان يتجه إلى إعادة صياغة البنية العقلية للأمة على أسس تعيد الاعتبار للمفاهيم العقلية فى مواجهة صحافة الموعظة والخطابات المنبرية التى اعتمدت على ترسيخ مفاهيم هيراركية وماضوية عبر لغة إنشائية كانت تتمسك بلغة الدواوين. وكان هذا المفهوم مرتبطا أشد الارتباط بصعود الدولة القومية التى استهدفت نقل هذا المشروع التحديثى من كونه فكرة نظرية إلى نطاقه التطبيقى ليتجلى بكثافة فى الأداءات اليومية عبر تصوراتها للمستقبل على المستويين السياسى والاجتماعى، وهو ما عبرت عنه الدولة الناصرية بشكل جازم. من هنا وصفت تلك المدرسة الصحفية بالرصانة والموضوعية وإن ظل جمهورها هو الأقل

بين قراء الصحافة. وقد كانت ولازالت مؤسسة الأهرام تعتبر أعلى تمثيلات هذه المدرسة، حيث دخلها هيكل رئيسا فى عام ١٩٥٧ ولم يغادرها سوى فى عام ١٩٧٤ بعد التحولات الدرامية التى شهدتها الحقبة الساداتية انقلابا على نهج الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، الذى يعد هيكل أحد أكبر منظرى مشروعه الفكرى والسياسى. وقد كان خروج هيكل عن الأهرام واحدا من أخطر ملامح ذلك التحول الذى حصدت مصر مراراته ولا تزال.

أما على المستوى السياسى فقد طُورِدَ الرجل من كافة التيارات على وجه التقريب. فصورة هيكل لدى اليسار الراديكالى أنه مجرد إصلاحى تحالف مع البرجوازية الناصرية التى كانت مناهضة للمشروع الماركسى اللينينى الذى تبنته الأحزاب الشيوعية فيما قبل ثورة يوليو، واستمر مطلبا لها حتى تاريخ حل الحزب الشيوعى المصرى فى عام ١٩٦٤، كما يوصف من الليبراليين وعلى رأسهم حزب الوفد المصرى بأنه واحدا من أعدى أعداء الحرية الفردية والديمقراطية والتعدد باعتباره واحدا ممن دعموا إغلاق الأحزاب السياسية بعد صعود ثورة يوليو، وظل ولا يزال يرى

أن تلك الأحزاب سببا فى ضعف السياسية المصرية ومن ثم ضعف الدولة. فقد كانت الصراعات السياسية بين أحزاب الأقلية مزمنة وخطيرة لاسيما فى إطار تحالفاتها غير الأخلاقية مع الملك مرات ومع الاحتلال مرات أخرى. فى الوقت نفسه نظر اليمين الدينى لهيكل بعين الارتياب فهو أحد أعداء ما يسمى بالدولة الدينية، فقد كانت ولاءاته منذ الملكية ذاهبة فى طريق تأييد الدولة القومية التى أسس فكرها النظرى ساطع الحصرى وعبد الرحمن الرافعى وغيرهما، وهى الدولة التى تتناسل من دولة محمد على ثم توسعت رئتها بالبعد العروبى، حيث تبلورت التوجهات القصوى لتلك الدولة بانشقاقها الجذرى عن السلطنة العثمانية كممثل أخير للدولة الدينية.

وقد كان تأييد هيكل لعبد الناصر فى موقفه من الإخوان المسلمين فى أحداث ١٩٥٤ وأحداث ١٩٦٥ علامة فاصلة فى موقف التيار الدينى منه، وقد استمر هذا الموقف قائما حتى عام ٢٠١٣ عندما أيد هيكل إطاحة الرئيس الإخوانى محمد مرسى من الحكم، بل كان يرى أن وصول الإخوان المسلمين للحكم كارثة بكل المعانى رغم تأكيده على حقهم فى المشاركة

فى الحكم. وقد أشار عند لقائه مرسى فى قصر الاتحادية بعد توليته الرئاسة إلى أنه طرح كل الأسئلة الشائكة على الرجل لكنه لم يتلق أية إجابة، ومن بين هذه الأسئلة التى ذكرها: كيف سيتعامل الإخوان مع قاعدة الأمن القومى وهى قاعدة عربية وليست إسلامية؟ كيف سيتعاملون مع وزارة الداخلية وهى خصم قديم للإخوان؟ كيف سيتعاملون مع الجيش وهو الجزء الأهم من قاعدة الأمن القومي؟ كيف سيتعاملون مع التعليم وهو يمثل العقل العام الذى لم يترب فى حاضنة الحكم الإسلامي؟ وقد عبر هيكل عن انعدام ثقته فى قدرة الإخوان على توليد إجابات ذات علاقة رشيدة بالحكم، وهو ما كان.

وقد دأب رجال ودعاة الإخوان المسلمين على الهجوم على هيكل وكان بين أبرز مهاجميه الدكتور يوسف القرضاوى، وجلال كشك الذى وصفه بالكذاب وقال إنه لا يتحدث عن أية وقائع إلا بعد موت أطرافها، لكن حقائق التاريخ تقول عكس ذلك، إذ كثيرا ما أطلق هيكل وقائع شديدة الخطورة فى حياة أصحابها مثل اتهامه للملك حسين أثناء حياته بأنه عميل للمخابرات الأمريكية بل قام بنشر المبالغ التى كان يتقاضاها

لقاء ذلك، وكذلك فضحه قيام المغرب بنقل وقائع القمة العربية إلى إسرائيل على الهواء مباشرة أثناء انعقادها فى الدار البيضاء وكان ذلك فى حياة الملك محمد الخامس.

المفارقة أن هيكل لم يسلم من الناصريين أنفسهم لاسيما ذلك الفريق الذى أزاحه السادات من السلطة والذى شكل فى نهاية السبعينيات حزبا يحمل اسم الزعيم الراحل جمال عبدالناصر. فقد اعتبره هؤلاء واحدا من شركاء السادات فى إزاحتهم من سدة الحكم فى ما سُمى بثورة التصحيح فى مايو عام ١٩٧٠، حيث كان هيكل واحدا من مؤيديها، ودعا الشعب للوقوف خلف رئيسهم وقتها. ويذكر التاريخ أنه كتب ثلاثة مقالات بجريدة الأهرام أكد فيها أن السادات سيظل قائدا تاريخيا لشعبه، وهى قيادة يتضاءل أمامها كرسى الرئاسة إلى جوار مقعد القائد والزعيم الذى يمثله السادات نفسه. غير أن حصاد حرب أكتوبر وتوجهات السادات نحو الغرب ومتحصلات علاقاته بالولايات المتحدة كانت جوهر الخلاف الذى أنهى الوجود الصحفى الرسمى لهيكل. لكن خروجه من الأهرام لم يمثل له النهاية التى توقعها بل تمناها له البعض. فسرعان ما انتقل إلى وضعية أكبر من كونه

صحفيا محليا بحيث باتت مقالاته مادة أساسية فى كبريات الصحف العالمية، وكذلك ظلت تترجم كتبه إلى واحد وثلاثين لغة بمجرد صدورها بالعربية.

وكانت النهاية الفعلية للدولة الساداتية فى سبتمبر ١٩٨١، حيث قام بالقبض على العشرات من رموز السياسة والثقافة وكان هيكل بين أبرز الأسماء المتحفظ عليها، غير أن الشهر التالى مباشرة شهد سقوط السادات صريعا وسط احتفالات أكتوبر. وكانت أولى قرارات مبارك هى الإفراج عن كل هؤلاء وعلى رأسهم هيكل، حيث كان لقاؤهما الأول الممتد لست ساعات بابا لتصريح بخط مفتوح لهيكل على الرئاسة مباشرة لكنه خط يبدو أن الرجل لم يستخدمه البتة. كان موقف هيكل النهائى هو نفسه موقفه من السادات حيث دعا لتأييد مبارك فى بداية حكمه، غير أن هذه العلاقة ظلت متراوحة حتى تم منع المحاضرة السنوية التى كان يعقدها هيكل بمعرض القاهرة الدولى للكتاب منذ نهاية التسعينيات بسبب انتقاداته المستمرة للحكم. ثم جاءت المحاضرة التى ألقاها هيكل فى الجامعة الأمريكية عام ٢٠٠٢ لتضع نقطة فاصلة فى علاقته بحقبة مبارك، حيث كان أول من فجر قضية توريث حكم

مصر لجمال مبارك وهى المعركة التى لم يخمد أوارها حتى ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ التى أيدها هيكل منذ لحظات انطلاقها الأولى وهو ما فعله مع ثورة الثلاثين من يونيو أيضا.

ولم تتغير، على مدار ذلك الزمان تصورات هيكل الجوهرية حول أعمدة الدولة المصرية وفى القلب منها المؤسسة العسكرية. فرغم ملاحظاته العميقة حول الأداءات المختلة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة فى إدارة البلاد بعد الخامس والعشرين من يناير فإن ذلك لم يغير من جوهر موقفه المؤيد للدولة الوطنية التى يتأسس أمنها القومى فى نظره على تعدد النسيج الوطنى وتعميق مفهوم الشراكة المجتمعية على المستوى الداخلى، أما على المستوى الخارجى فطالما دعى هيكل إلى استعادة المفهوم المتمدد للأمن القومى المصرى، وهو فى ذلك تلميذ نجيب لأفكار جمال حمدان الذى يرى أن عبقرية الجغرافيا المصرية جعلت منها مطمعا تاريخيا، من ثم لا يمكن أن يبدأ الأمن القومى من حدود تلك الجغرافيا. وفى إطار القناعات نفسها جاء تأييد هيكل لوصول عبدالفتاح السيسى لمقعد الرئاسة، بل وأكد، غير مرة، أن الرجل يملك

الرؤية والقدرة، وأنه، بقصد أو بغير قصد، أفشل سايكس بيكو الثانية فى إطار مخطط أمريكى واسع لإعادة تقسيم العالم العربى.

وربما كان التراكم التاريخى الطويل لرحلة هيكل بين الصحافة والسياسة سببا مباشرا فى وصفها بالغموض والالتباس، لاسيما وأنه يتصرف كرجل دولة شديد التحفظ، ينتقى لغته بعناية سواء كان متحدثا أو كاتبا، كما يختار التوقيتات المناسبة لإعلان مواقفه. غير أن كل ذلك لا يعنى أن هيكل ظل بلا أخطاء، ربما العكس هو الصحيح. فطالما وصف هيكل بأنه منظر جمهوريات الخوف، ولا يستطيع كثيرون داخل النخبة المصرية أن يغفروا له تأييده لثلاثة رؤساء يوصفون بأنهم عسفوا بالديمقراطية. كما أن موقفه من العلاقات المصرية الأمريكية فى الحقبة الناصرية كان ولا يزال غامضا لدرجة دفعت بعض خصومه لاتهامه بأنه عميل للمخابرات الأمريكية، كما يشكك آخرون فى أسباب خلافه مع السادات ودعوته للتمسك بالعلاقة مع الكتلة الشرقية باعتبار أن انتصارات أكتوبر تمت بالسلاح الشرقى، فقد كانت الأضابير ممتلئة بالكثير حول أن الخلافات كانت تدور حول

استحقاقات هيكل بعد الانتصار، لكن مرور الزمن لم يمكن هؤلاء الخصوم من تقديم أدلة على صحة ادعاءاتهم.

وفى كل الأحوال فإن الحصاد الفكرى والثقافى والصحفى الذى تركه هيكل جعل منه أهم صحفى عربي فى القرن العشرين، ولطالما صنف باعتباره واحدا من أهم أحد عشر صحفيا فى العالم، حدث ذلك على مدار أكثر من ثلاثين عاما، بل كانت جريدة الأهرام تحت رئاسته واحدة من أهم عشر صحف تصدر حول الكرة الأرضية. هذا بالإضافة إلى إرث باذخ يتضمن أكثر من ستين مؤلفا رفيعا فى السياسة والفكر والتاريخ العربى الحديث منذ ما قبل الثورات العربية التى غيرت العالم الثالث فى منتصف القرن الماضى، هذا بالإضافة إلى كتبه المؤثرة التى أصدرها تغطية لأحداث كبرى ضمن الصراعات الإقليمية والعالمية الأكثر حساسية وتأثيرا.

سيظل محمد حسنين هيكل فكرة عصية على الابتلاع أو الهضم، لكن ذلك لا يعنى أنه معصوم كما يدعى مؤيدوه على نطاق هيستيرى. وأتصور أن مفهوم الجمهورية فى العالم العربى سيظل مدينا لهيكل بالكثير. فقد كان إدراكه للمسافة التى تفصل بين الجمهورية الأفلاطونية "اليوتوبيا" وبين الجمهورية الأرضية المنشودة التى يجب أن تسقط ثمارها فى

أيدى الناس عاملا مؤثرا فى تحول الشعارات البراقة إلى حقائق أرضية. وهذا الوصف لم يعصم الدولة الناصرية من وصفها جملة بأنها دولة مجانين.

كان هيكل، لا شك أكبر هؤلاء المجانين، بل ربما كان مؤسس هذا الجنون ومنظره. ولعل تحذيره من"سايكس بيكو"الثانية التى اشتعلت أمانيها بعد الثورات العربية الجديدة لم يكن أضغاث أحلام ، بل نراه يتحقق الآن، بكل أسف، فى صحراوات الربيع العربى.

هذا هو هيكل الذى طارده اليمين باعتباره سيد العُصاة، وطارده اليسار باعتباره ابنا للعقيدة الاشتراكية الناقصة، وطارده القوميون ليحتكروا وحدهم الحديث باسم الجموع، وطارده الحكام لأنه كان أكبر من سوء الطوية.

من سيرة أحمد لطفى السيد..
مؤسس الجامعة المصرية الحديثة

فى التاسع من مارس عام ١٩٣٢ استقال أول مدير للجامعة المصرية من منصبه احتجاجا على طرد الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب، واعتبر أن وزير المعارف حلمى عيسى باشا تدخل تدخلا سافرا فى شؤون الجامعة التى حرص منذ أول أيامه فيها على أن تظل موضع احترام وقداسة، ولم يكن هذا الرجل سوى معلم الأجيال أحمد لطفى السيد الذى أثرى الحياة المصرية مع غيره من عباقرة عصره على المستوى السياسى والثقافى والاجتماعى، فرغم أنه سليل أسرة فاحشة الثراء فإنه ظل طيلة حياته مدافعا عن الطبقة المتوسطة والفقيرة، وقد نال منه ذلك ما نال غير أنه حتى آخر يوم فى عمره لم يتوان لحظة عن الوقوف مع مبادئه التى كانت تميز الوطنيين المصريين آنذاك.

وكتاب أحمد لطفى السيد"قصة حياتى" واحد من تلك الكتب التى تدلنا على سر هذه القوة السحرية التى كان عليها الرجل الذى أسهم فى تطوير العملية التعليمية فى مصر منذ بداية القرن الماضى سواء كان فى الوزارة أو كان خارجها، وقد تولى بالفعل وزارة المعارف فى يونيو ١٩٢٨ مع محمد محمود باشا، وهى الوزارة التى لم يزد عمرها على خمسة عشر شهرا وبضعة أيام؛ إذ تألفت فى يونيو ١٩٢٨ واستقالت فى ١٢ أكتوبر ١٩٢٩ بعد عودة رئيسها من مفاوضاته بلندن مع مستر هندرسون، غير أنه عاد للعمل بالجامعة أوائل عام ١٩٣٠، هذا بجانب انتخابه عضوا بمجلس شورى القوانين وأحد الذين أسسوا حزب الأمة وكان سكرتيره العام، وقد ترأس الحزب فى ذلك الوقت محمود سليمان باشا، كما أنه مؤسس جريدة الجريدة ورئيس تحريرها، وأنشأ جمعية سرية غرضها تحرير مصر وذلك منذ حصوله على شهادة ليسانس الحقوق فى عام ١٨٩٤ إلى جانب عبد العزيز فهمى وأحمد طلعت وحامد رضوان، وكان قد أنشأ قبل ذلك مجلة التشريع بالاشتراك مع إسماعيل صدقى وإسماعيل

الحكيم وعبدالهادى الجنـدى وعبد الخالق ثـروت ومحمـود عبد الغفار.

كانت علاقة لطفى السيد بالشيخ محمد عبده عبر مدرسة الحقوق لها عظيم التأثير على توجهاته. لاسيما فى دراسة المذاهب الفقهية، ففى امتحان السنة الثالثة بكلية الحقوق طلب منه الشيخ أن يكتب حول حق الحكومة فى معاقبة الجانى، نما كان منه إلا أنه تناول الموضوع من جميع جوانبه حيث استفاد من الموقف الفقهى للمذاهب الأربعة فى عقوبات الجناة، ثم انتهى إلى أن الحكومة ليس لها حق معاقبة الجانى، لأن كل حكومة نشأت بالقوة، والقوة لا تعطى الحق ءإنما الذى يعطيه هو العقد فقط وليس هناك أى عقد بين ـحكومة وبين أمتها.

وقد منحه الشيخ محمد عبده أعلى الدرجات على بحثه وكانت هذه أول خطوات التبلور لا سيما فى الموقف الوطنى الذى أضفاه شيخه على فكرته عن ضرورة وجود العقد بين الأمة وحكومتها، وهو ما يعرف الآن بالعقد الاجتماعى أو الشرعية التى تصل من خلالها الحكومات الديمقراطية إلى

سدة الحكم. ويشير لطفى السيد إلى أن هذا الموقف المتقدم والمستنير شجعه على أن ينشئ مجلة التشريع بالاشتراك مع إسماعيل صدقى باشا وإسماعيل الحكيم وعبد الهادى الجندى وعبد الخالق ثروت ومحمود عبد الغفار، فضلا عن عمله وقتها فى الترجمة لجريدة المؤيد.

سافر لطفى السيد إلى اسطنبول وكان لا يزال طالبا فى مدرسة الحقوق فالتقى صديقه إسماعيل صدقى، وكان الخديوى عباس حلمى الثانى يزور العاصمة العثمانية فى ذلك الحين وكان كلاهما يمثلان الطلبة المصريين فى الاحتفال بالخديوى وبينما يسير ذات يوم مع رفيقه للتنزه على كوبرى جلطة وكان به شيء من القدم والتهالك، فأخذ إسماعيل صدقى يتساءل: أين ميزانية الدولة، ولماذا هى بطيئة فى التعمير والإصلاح، وعلى عادة ذلك العهد كان يسير خلفهما جاسوس عثمانى فأبلغ على الفور بما سمع.

فى اليوم التالى مباشرة كان أمين باشا رئيس الوفد المصرى فى المعية السنية فبلغه الخبر، وكان جزاء هذا الانتقاد هو النفى فى بغداد حتى الموت، فأراد أمين باشا

تهدئة الموقف فأبلغ عن أن هذا الذى تكلم ليس إلا تلميذا صغيرا لا يمكن الوقوف على ما يقوله. فقيل له: إذن ما دام يهمك أمره فليسافر فى أول سفينة تقوم من اسطنبول، فسار إسماعيل صدقى فى صباح اليوم التالى ووصل إلى مصر فى ١٢ يوما، وقد بقى هناك لطفى السيد مدة إجازة الصيف التى جمعته لأول مرة بأستاذه جمال الدين الأفغانى الذى كان يقيم وقتها فى اسطنبول فى حضرة السلطان عبدالحميد وتحت رعايته.

ويقول لطفى السيد إنه ذكر لسعد زغلول فى الأستانة رغبته فى التلمذة على السيد جمال الدين وسأله عن السبيل التى يسلكها ليكون تلميذا له، فأجابه سعد: اذهب إليه وأطلب منه ذلك. ويضيف السيد: "فقصدت إليه، فما كدت أقبل عليه حتى قام لتحيتى كالمعتاد، فقلت له: أنا لست زائرا ولكنى تلميذ.. فسر رحمه الله بذلك، وأخذ عليّ عهدا بأن ألازمه طوال إقامتى بالأستانة.. وقد فعلت". ويشير لطفى السيد إلى أنه تعلم الكثير من شيخه، وكان أول ما تعلم منه كيفية محاسبة المرء لنفسه وتقويمها بصفة مستمرة.. وكذلك عقليته

المنظمة والمرتبة والطموحة التى كانت نبراسا لكل من حوله.

ويشير لطفى السيد إلى أن الأفغانى كان يحمل موقفا شديد النقمة على الإنجليز لسياستهم المروعة فى البلاد الإسلامية ولما ارتكبوه معه شخصيا من اعتداءات حتى أخرجوه من الهند، ودسوا له فى مصر حتى خرج منها فى عهد الخديوى توفيق، حيث سعى حثيثا للإفراج عن لطفى باشا سليم ومن معه فى الحبس حينما قاموا بالثورة العسكرية إبان قيام الوزارة المختلطة.

بعد عودة لطفى السيد تم تعيينه وكيلا للنيابة ببنى سويف براتب عشرة جنيهات وكان فى ذلك الوقت برفقة عبدالعزيز فهمى، ونظرا للحالة السيئة التى كانت تعيشها مصر تحت الاحتلال البريطانى فقد كونا معا، وبانضمام جمع من الأصدقاء، جمعية سرية هى جمعية تحرير مصر التى ضمت إلى جانبهما أحمد طلعت وحامد رضوان ومحمد بدر الدين والدكتور عبد الحليم حلمى ثم انضم إليهما آخرون من كبار الأعيان ورجالات الدولة.

بعد تشكيل الجمعية أبلغه مصطفى كامل بعلم الخديوى

بشأن الجمعية وأغراضها وعرض عليه الاشتراك فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديوى، وبالفعل تم اللقاء بحضور الخديوى الذى كلفه آنذاك بالذهاب إلى سويسرا والحصول على جنسيتها باعتبار أن وجوده لدى أحد الأقاليم الفرنسية سوف يخدم القضية المصرية التى يمكن تأليب فرنسا عبرها على مصالح بريطانيا فى الشرق، فتكون إحدى أوراق الضغط على الإنجليز، وبالفعل سافر لطفى السيد إلى جنيف وقابل فيها الأثرى المعروف "نافل" صاحب العلاقات السياسية الواسعة وجرى بينهما حديث طويل أنهاه بقوله للطفى السيد: لا تظن أن أوروبا تساعدكم على إنجلترا.. وأرى ألا يحرر مصر إلا المصريون!

ويروى لطفى السيد حادثا طريفا أثناء زيارته لجنيف عندما كان يزور محمد ثابت باشا حامل أختام الخديوى أو رئيس الديوان بلغة العصر وكان يوجد أثناء الزيارة أحمد فريد باشا والد الزعيم الوطنى محمد فريد وكان ناظرا للدائرة السنية ومن كبراء رجالات مصر المعدودين على حد تعبير لطفى السيد، وفى هذه الجلسة أخذ فريد باشا يشكو

ابنه إلى الشيخ محمد عبده وهو يبكى، وكان وقتئذ مريضا وقال للشيخ: هل يصح يا سيدى الأستاذ أن يهزئنى محمد فريد فى آخر الزمن ويفتح دكان أفوكاتو"مكتب محام"؟! وكان محمد فريد قبل ذلك وكيلا للنيابة ثم استقال منها بعد أن بدرت منه ألفاظ جارحة ضد الحكومة فأمرت بنقله إلى الصعيد، فاستقال وفتح مكتبا للمحاماة مع محمود أبو النصر وأنشأ مجلة الموسوعات التى كان لطفى السيد أحد محرريها، وقد كتب فيها عددا من المقالات الشهيرة تحت عنوان شخصيات الأمة، حيث نادى فى إحداها بإصلاح الحروف العربية كى يقرأ القارئون اللغة العربية قراءة صحيحة من غير أن يتعلموا النحو والصرف.

وبعد عودته من جنيف كتب لطفى السيد تقريرا مفصلا للخديوى حول أبحاثه السياسية هناك وقال إن مصر لا يمكن أن تستقل إلا بجهود أبنائها، وإن المصلحة الوطنية تقضى أن يرأس سمو الخديوى حركة شاملة للتعليم العام، وبسبب علاقته بالشيخ محمد عبده فى جنيف غضب منه الخديوى فعاد بعد هذه الرحلة إلى عمله بين نيابات مختلفة:

الإسكندرية، الفيوم، المنيا، ميت غمر، حتى استقال من النيابة عام ١٩٠٥ لخلاف فى الرأى القانونى بينه وبين النائب العمومى كوربت بك ولم تكن هذه استقالته الأولى من النيابة، إلا أن هذه المرة كانت استقالة مسببة بسبب ضيق الخناق الذى كان يحاط به وكيل النيابة من عدم التصرف فى الجنايات الكبرى إلا بعد الرجوع للنائب العمومى.

بعد ذلك اشتغل لطفى السيد بالمحاماة مع صديقه عبدالعزيز فهمى الذى كان قد استقال من الأوقاف ليشتغل أيضا بالمحاماة، غير أنه سرعان ما انصرف عن هذه المهنة فاعتزلها للعمل بالسياسة والتحرير فى صحيفة "الجريدة"، وهى الجريدة التى أنشأها لطفى السيد باستقلالية تامة عن سراى الخديوى وسلطة الاحتلال وذلك عبر ما سمى بـ شركة الجريدة التى تألفت برئاسة حسن باشا عبد الرازق، وهى الجريدة التى ظلت متهمة لفترة بالتعاون مع الإنجليز، لأنها ضمت شركاء من كبار الموظفين المصريين فى الوقت الذى كانت تسيطر فيه إنجلترا على أمر الحكومة وكان من بين هؤلاء أحمد فتحى زغلول باشا رئيس محكمة مصر، وأحمد

عفيفى باشا ثروت عضو لجنة المراقبة وصاحب الأثر الكبير فى وزارة العدل.

بعد توليه رئاسة دار الكتب رأى لطفى السيد أن الفلسفة العربية قامت على فلسفة أرسطو وأن الربط الحقيقى بين النهضة الحديثة والتفكير العصرى يلزمه بالضرورة ترجمة هذه المذاهب الفلسفية الجديدة، وقد كان أرسطو المعلم الأول بالفعل أو كما لقبه دانتى فى جحيمه معلم الذين يعلمون.

لذلك فقد ترجم لطفى السيد كتابه "الأخلاق" عام ١٩٢٤ وهذا الكتاب يعد مقدمة لكتاب السياسة، الذى ما زال يدرس أصول علم السياسة حتى الآن فى جامعات العالم.

وكان لطفى السيد قد لبى دعوة إسماعيل عاصم وعدلى باشا ويعقوب صروف وآخرين عام ١٩١٦ إلى ضرورة إيجاد مجمع للغة العربية لا يكون تابعا لوزارة المعارف، ولكن تابعا لدار الكتب المصرية وبالفعل قام لطفى السيد بدعوة حفنى بك ناصف، وعاطف باشا بركات، ووضعوا معا قانونا للمجمع الذى تألف برئاسة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى وشيخ الأزهر، وكان لطفى السيد سكرتير المجمع الذى تدفق عليه

كثيرون من علماء مصر وقتذاك وكانت أهم قضايا المجمع فى هذه الفترة مدى جواز التعريب من عدمه.

لطفي السيد وتأسيس الجامعة المصرية :

كلف الملك فؤاد لطفى السيد بدراسة إنشاء جامعة تضم المعاهد والمدارس العليا وكانت هذه البوتقة بالطبع هى الجامعة المصرية.

وقد تم بالفعل انعقاد أول مجلس إدارة لهذه الجامعة فى عام ١٩٢٣ لتسليم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف العمومية، وتم تحرير عقد بهذا المعنى وقعه أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الحين وحسين رشدى باشا رئيس الجامعة، وقد أصر لطفى السيد على أن يتضمن هذا العقد بندا خاصا بالدكتور طه حسين فحواه أن ينتقل طه حسين أستاذا فى الجامعة الجديدة بوضعه القديم دون أدنى مساس بصلاحياته. وكانت الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ تحت رئاسة الأمير أحمد فؤاد غير معترف بشهاداتها فى التوظف بوظائف الحكومة، وكانت قليلة الموارد وكانت لا تستطيع لهذه الأسباب إضافة أقسام جديدة إلى كلياتها لا سيما الأقسام

العلمية.

وكـان كل ذلك ضـمن الأسـبـاب التى دعت إلى تسليم الجامعة إلى وزارة المعارف طبقا للعقد المبرم بين رئيسها ووزير المعارف العمومية فى يوم الأربعاء الموافق ١٢ ديسمبر عام ١٩٢٣، وقد تضمنت إلى جانب الحفاظ على استقلالها أن تحترم وزارة المعارف تعهدات الجامعة نحو أساتذتها وموظفيها.

أما فيما يتعلق بالدكتور طه حسين فقد رؤى، نظرا لحالته الشخصية، أن يبقى أستاذا بكلية الآداب.

أما فيما يتعلق بدخول البنات إلى الجامعة، فقد حدث أن طلب إليه بعض عمداء الكليات فى أول عام لافتتاح الجامعة أن هذه المسألة سوف تكون شائكة وأنه يشك فى رضا الحكومة عنها، وعلى ذلك فقد قرر أن يقبل البنات الحائزات على البكالوريا من غير أن يثار ذلك فى الصحف أو الخطب وقد نجحت الحيلة بالفعل ودام هذا الحال عشر سنوات حتى قامت ضجة كبرى تستنكر هذا الاختلاط غير أن التاريخ والتطور كانا قد تجاوزا هذا الخطاب القديم.

وفى يونيو ١٩٢٨ تولى أحمد لطفى السيد وزارة المعارف ولأن الوزارة لم تستمر طويلا فقد عاد بعدها للجامعة فى أوائل عام ١٩٣٠، غير أن مارس عام ١٩٣٢ شهد اعتداء سافرا من وزارة المعارف على استقلال الجامعة بعد قيامها بنقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إلى إحدى الوظائف بديوان الوزارة دون أخذ رأى الجامعة.

وقد رأى لطفى السيد أن الوزارة وإن لم تكن قد تجاوزت القانون إلا أنها تجاوزت التقاليد الجامعية، فقابل على الفور رئيس الوزراء إسماعيل صدقى باشا وشرح له تفاصيل الموقف. وأكد له أن الجامعة لا يمكنها الاستغناء بحال من الأحوال عن طه حسين على الأقل فى الوقت الراهن، واقترح عليه تلافيا للضرر واحتراما لرأى الوزير حلمى عيسى باشا، أن يرجع الدكتور طه بك حسين أستاذا بكلية الآداب لا عميدا، وقد وافق رئيس الوزراء على الفكرة، غير أن لطفى السيد علم فى اليوم التالى برفض الوزير لمقترحاته فقدم استقالته إلى وزير المعارف فى ٩ مارس عام١٩٣٢، وقد جاء فى هذه الاستقالة شرح واف للاعتداء السافر على التقاليد

الجامعية، حيث يقول السيد: ومن حيث إننى لا أستطيع أن أقر الوزارة على هذا التصرف الذى أخشى أن يكون سنة تذهب بكل الفروق بين التعاليم الجامعية وأغيارها، أتشرف بان أقدم بهذا إلى معاليكم استقالتى من وظيفتى..".

وقد ظل لطفى السيد بعيدا عن الجامعة حتى أبريل عام ١٩٣٥ حين جاء نجيب الهلالى باشا وزيرا للمعارف فى وزارة محمد نسيم باشا الثانية فطلب إليه العودة إلى الجامعة، فاشترط أن يعدل قانونها بحيث ينص على ألا ينقل أستاذ منها إلا بعد موافقة مجلس الجامعة وقد تم تعديل القانون فعلا.

فاروق الباز.. عالم وشيخ طريقة!

لاشك أن علماء مصر الكبار على مساحة الكرة الأرضية مدينون لثورتى يناير ويونيو. فقد أعادت الثورتان الاعتبار لأسماء لها وقعها لدى العامة والخاصة بعد أن كانت موضع إقصاء وتخوفات لا تنتهى من نظامين فقدا رشدهما. ورغم الهزائم التى مُنيت بها مصر بعد عراكها الثورى الذى طال مداه لازالت الطموحات منعقدة على أن تستفيق البلاد وتدرك مقتضيات المستقبل من خلال إعادة النظر فى موقع العلوم التجريبية على خارطة السياسة متجاوزة مناخات الفساد وسيطرة مافيا المال والسياسة على الفضاء العام، وربما تكون البداية الجادة فى تلك الخطوة التى اتخذها رئيس الجمهورية عبدالفتاح السيسى بتشكيل المجلس الاستشارى العلمى الذى ضم أكثر من عشرين من علماء مصر فى مختلف أنحاء العالم.

كان اسم الدكتور فارق الباز بين تلك الأسماء التى برزت ضمن أعضاء هذا المجلس لكنه أيضا كان اسما مطروحا بقوة قبل وبعد ثورتينا، غير أنه فى هذه المرة يأتى بينما

تتقدمه مشروعات قومية كبرى تبدو الدولة أكثر جدية فى التعامل معها، بعكس تلك الصورة التى رسمها الرؤساء السابقون لأنفسهم كرجال علم، فى الوقت الذى كانوا يرتكبون فيه أبشع الخطايا ضد العلم والعلماء.فقد أصدر الرئيس السادات قرارا جمهوريا بتعيين الباز مستشارا علميا له فى نهاية سبعينيات القرن الماضى لكننا لم نر ظلا لتلك الاستشارية على أرض الواقع حتى مقتل السادات. ولم تخل حقبة مبارك من تكريمات مماثلة لأسماء هؤلاء العلماء مثل تكريمه لمحمد البرادعى و نجيب محفوظ أو لقاءاته المتكررة مع فاروق الباز وأحمد زويل، غير أن المحصلة لم تكن أكثر من محاولات لغسل عار السياسة بشرف العلم وعلمائه.

وهاهو يتجدد الحضور الباذخ للجيولوجى فاروق الباز أشهر العارفين بتضاريس القمر ربما فى عصرنا الحديث لدرجة دفعت رواد الفضاء الذين تدربوا على يديه إلى تسميته بـ"الملك"، وكانوا بعد أن يعودوا من رحلاتهم الفضائية يتحدثون عن أنه يصف القمر كأنه كان معهم. وقد كانت تلك المعرفة الجيولوجية الواسعة للرجل الذى ترأس أشهر الوكالات الفضائية فى العالم وراء مشروع"ممر التنمية"الذى

طرحه فى كتاب من أهم كتبه وهو الآن قيد الدراسات التنفيذية. وهو مشروع أثار الكثير من اللغط بمثل ما أثار الكثير من الاستحسان.

يطرح الباز مشروعه في واقع مأزوم على مستوى بنيته السياسية والمجتمعية ويستهدف، فى عمقه، تخليص الوادى من أزمات التكدس المرعب الذى يهدد المستقبل على مستويات عدة. فالمشروع كما يصفه الباز فى كتابه"ممر التعمير"هو مشروع القرن الحادى والعشرين الذى بإمكانه أن يقضى على تكدس المدن ونحر الأرض الزراعية وغيرها من المشكلات التى تهدد مستقبل مصر. والمشروع، حسب وصفه، يمتد من مدينة الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط شمالا حتى الحدود السودانية جنوبا، وسيوفر بمجرد البدء به ٥٠٠ ألف فرصة عمل، كما سيؤدى إلى خلخلة الكتلة السكانية حول وادى النيل، لاسيما وأن التقديرات تشير إلى أن عدد سكان مصر سيبلغ مئة وخمسين مليونا بعد ٣٠ عاما فى ظل استمرار مشكلات تجعل مستقبل البلاد أكثرترديا. سيبلغ طول الممر ١٢٠٠ كيلومتر ويقطعه عرضيا ١٢ طريقا طولها بين عشرة كيلومترات و٨٠ كيلومترا لربط الممر المقترح بالمدن

المصرية المكدسة سكانيا. وسيربط الممر المقترح ربطا عضويا بين المدن المصرية كالقاهرة وطنطا والمنيا والأقصر التى يرى الباز أن بها هضبة ممتازة يمكن استثمارها فى إقامة فندق يطل على أكبر موقع للآثار فى العالم... ويؤكد الباز فى كتابه"ممر التعمير"، الذى غيرت الحكومة اسمه إلى"ممر التنمية"، أن تلك المنطقة ستكون أفضل من مدينة صغيرة مثل دبى التى يأتى إليها مليونا سائح سنويا وهى تخلو من بيت واحد قديم ولا يوجد فيها شيء يستحق الرؤية. لكن ما لم يقله الباز هنا أن هذا المشروع تم تقديمه لحكومة نظام الرئيس المخلوع حسنى مبارك، وناقشه الرجل مع رئيس الوزراء آنذاك أحمد نظيف ربما قبل ثورة يناير بأقل من عامين، فقد كان طريق الباز مفتوحا على الرئاسة المصرية بحكم موقع شقيقه الراحل"أسامة الباز"الذى كان الشخصية الوحيدة التى شغلت منصب مستشار الرئيس للشؤون السياسية فى عصر مبارك وكان محل ثقته لسنوات طوال انتهت بشكل غير رسمى قبل ثورة يناير بأعوام قليلة بسبب تصريحات لأسامة الباز رأت الرئاسة أنها افتئات على مسألة توريث الحكم؛ حيث كان صرح فى لقاء مع كتاب مصر باتحادهم أنه

لا توريث للحكم فى مصر مهما كانت الأسباب، وهو كلام رأت فيه الرئاسة تجاوزا يحول دون فرص وريث الحكم جمال مبارك، وهو الأمر الذى انعكس فى الفتور الذى اعترى علاقة فاروق الباز برئاسة مبارك فى أعوامه الأخيرة، حتى تخلى عمليا عن منصبه.

أما فاروق الباز الذى عصمه العلم عن الانزلاق فى مدارج السياسة فقد احتفظ بمكانته العلمية وتعامل مع نفسه معظم الوقت باعتباره فوق السياسة، فالعلم رسالة متجردة من الغرض بطبيعتها .غير أن تلك القيمة المتجردة للباز كعالم لم تعصمه على المستوى الشخصى من انتقادات حادة وساخرة فى بعض الأحيان، وكذلك لم تعصم أفكاره من النقد. فمشروعه الجوهرى عن ممر التنمية لم يسلم من النقد على المستوى الموضوعى؛ حيث رأى عديد من العلماء أن كافة مشاريع التنمية التى ذهبت إلى الصحراء الغربية فشلت فشلا ذريعا بسبب نقص المياه الجوفية وبسبب مناخات التصحر وثمة مثال حى على مشروع إنشاء الوادى الجديد فى الحقبة الناصرية حيث كان مستهدفا زراعة ثلاثة ملايين فدان فى تلك المنطقة، غير أن المساحة الفعلية المزروعة الآن لا تتجاوز

أربعين ألف فدان. وكان واحدا من أبرز الجيولوجيين المصريين وهو الدكتور رشدى سعيد قد وجه انتقادات حادة لهذا المشروع مذكرا بالفشل الذى لحق بمشروع توشكى جنوبى البلاد والذى لا تزال الاتهامات توجه إلى الحكومات المتعاقبة بسبب ما أهدر فيه من أموال قبل دراسة العائد منه، ومع ذلك فثمة أمل لدى كثيرين فى أن هذا المشروع قد يكون أحد قوارب الإنقاذ لمستقبل مصر.

ويعتبر فاروق الباز الذى ولد فى محافظة الدقهلية عام ١٩٣٨ واحدا من أكثر علماء مصر تقلدا لمناصب علمية رفيعة ترتبط بإنجازاته العلمية؛ حيث شغل أكثر من خمسة مناصب كبرى كان آخرها منصب مدير مركز تطبيقات الاستشعار عن بعد فى جامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، وكان قبل ذلك نائبا لرئيس مركز العلوم والتكنولوجيا فى مؤسسة آيتك لأجهزة التصوير بمدينة لكسنجتون، بولاية ماساتشوستس، فضلا عن اشتراكه فى تقييم برنامج الوكالة الوطنية للطيران والفضاء"ناسا"للرحلات المدارية للقمر.

ورغم كل ذلك فإن الكثير من الأسئلة الشائكة تحيط بالدكتور فاروق الباز. فثمة مشكلات تواجه الآن مشروع ممر

التنمية وكذلك مشروع المثلث الذهبى المحيط بمنطقة البحر الأحمر بسبب يشاع أنه راجع إلى رفض الدكتور الباز تسليم صور الأقمار الصناعية تحت تأثير تعليمات أمريكية مخافة أن كميات كبيرة من الأراضى المستصلحة ستتم زراعتها بالقمح مما يعزز فكرة استقلال القرار الوطنى فى مواجهة أزمة اعتماد مصر فى مصدر غذائها الرئيسى على الخارج، وإذا صحت هذه الشائعات فإن ثمة شروطا أمريكية تلاحق الكثير من المشروعات القومية فى مصر وعلى رأسها مشروع ممر التنمية بهدف تدجينه وتوجيهه إلى طرق غير مستقرة.

ولا شك فى أن القيمة العلمية الرفيعة للدكتور فاروق الباز تتجاوز المساحة التى ارتبطت بمناصبه العلمية، فهو مؤلف لعدد من الكتب المهمة التى بلغت أثنى عشر كتابا من بينها: مذكرات الباز حول أشهر رحلة إلى القمر"وقد طبع هذا الكتاب أكثر من عشرين طبعة وصدر بعنوان"أبولو فوق القمر، وفيما يتعلق بالشأن المصرى أصدر كتاب"الصحراء والأراضى الجافة"وكذلك"حرب البيئة"و"ممر التعمير فى الصحراء الغربية بمصر"هذا بالإضافة إلى أنه يشارك فى المجلس الاستشارى لعدة مجلات علمية عالمية.

ولاشك فى أن رغبة الدكتور فاروق الباز فى السنوات الأخيرة فى التحول إلى شخصية شعبية أفقده الكثير من منطق التجرد العلمى وأوقعه في أخطاء لا يمكن تصورها بالنسبة لعالم فى حجمه، وهى أخطاء شاركه فيها إعلام فاسد أحيانا وغبى فى معظم الأحايين، وربما ساعد على هذا تلك القصة التى لا يكف الباز عن تكرارها حول التميمة التى تضمنت سورة الفاتحة والتى قام بوضعها فى مركبة الفضاء أبولو لتصحب الرواد الخائفين من ذلك المجهول الذاهبين إليه طائعين. الغريب أن الباز يقول إن سورة الفاتحة كانت سببا فى نجاح الرحلة مما يعنى إسقاطه قيمة العلم الذى يعد أعلى تجليات العقل الإنسانى. مثل هذه الإجابات والحكايات قد تجد أصداء واسعة لدى العامة لكنها فى النهاية كانت ضد المنطق العلمى الذى يقوم على فرضيات عالية التجرد. وقد يرى البعض أن الأمر مرتبط برغبة الباز فى الاحتفاء المسرف بماضيه المصرى والعربى، يشمل ذلك التباسات تاريخية ودينية وسياسية، لم يسلم الرجل من النقد المسرف عندما توقف عندها لاسيما حديثه الدائم عن أن والده كان شيخا أزهريا وأن العلوم الشرعية كانت أحد أسباب تفوقه. كل هذا

يبدو معه حديث اللا عقل المستند إلى العلوم الإنسانية غريبا فى مواجهة عالم الجيولوجيا العالمى الذى تربى فى الحدائق الفيثاغورية.

وقد حصل فاروق الباز على ما يقرب من ٣١ جائزة، منها: جائزة إنجاز أبولو، الميدالية المميزة للعلوم، جائزة تدريب فريق العمل من ناسا، جائزة فريق علم القمريات، جائزة فريق العمل فى مشروع أبولو الأمريكى السوفييتى، جائزة ميريت من الدرجة الأولى من الرئيس أنور السادات، وكل هذه الجوائز كانت جزءا من التقدير لعالم قدم أكثر من ٥٤٠ ورقة علمية، وهذا الرقم فى ميزان العلم يعتبر شديد الضخامة، ويمثل إشارة قاطعة إلى أننا أمام عالم من طراز رفيع، ترك بصماته الواضحة لزمن طويل قادم فى مدونات تاريخ العلم.

نبيل عبد الفتاح فى ضيافة الحمقى!

كلما قرأت نبيل عبد الفتاح أو هممت بالكتابة عنه، تذكرت الشعر. رغم أن كتابات عبد الفتاح لا تمثل أى نوع من النوستالجيا، كما أنها ليست كتابة على حافة المحنة الشخصية التى قد تدفع المرء لاستدرار مثل هذه الفوائض الشعورية المتهتكة.

فنبيل عبد الفتاح ليس قصيدة بطبيعة الحال، ولا يملك نصه الفكرى ترف البصق على العالم كما يفعل الحمقى من الشعراء فى قصائدهم، لكنه دائما ما يفعل ذلك بطريقته الخاصة، لأنه أدرك مبكرا أن اللغة "العلمية" ليست إلا فخاخا لتهذيب الخيال. ربما لذلك لم أستطع قراءته على النحو الذى يحبه العلماء لأنفسهم ولكن على النحو الذى أحببته لنفسى؛ وأنا فى ذلك أحاول اجتراح تعبيرات خشنة ومؤرقة من غابة المؤلف نفسه. فعليه أن يدفع ثمن أن له محبين هنا وهناك، كونه أصبح واحدا من أبرز المجددين فى علم الاجتماع السياسى الحديث. ونحن إذا كنا نقفز معه إلى الأمام بهارمونية جارحة فذلك لأنه قدم إنجازه الفريد والباذخ عبر

منهجية تخصه وحده لأنها لم تقم اعتبارا كبيرا لفكرة التراتبية بكل تراثاتها الأبوية، مما جعل من نصه العقلى المحض ثورة متصلة على الخيالات المستأنسة وإيقاعاتها الخاملة، وهو أمر يبدو عصيا على الفهم بالنسبة لمن يعتقدون أنهم انحدروا من أصلاب الأكاديمية وأنها باتت حكرا عليهم وعلى نسلهم فى الأمم.

وإذا اعتبرنا نبيل عبد الفتاح، من هذه الزاوية، مجدفا أكاديميا، فقد سبقه مكيافيللى بخمسة قرون على الأقل، ثم إدوارد سعيد، ومصطفى ناصف، وبودلير، وإدجارآلان بو، وابن رشد، وسبارتاكوس ، ولانجستون هيوز، ومحمد عبده، وجاليليو وجميعهم كان خارج الإحداثيات المستقرة على مقاعد الدرس والتلقين، وجميعهم، بمعايير زمنه، كان يملك من التشوش ما يكفى للقضاء على القارات الست، مما أجبر واحدا مثل "جاليليو" أن يرتد أمام الموت لينفى دوران الأرض، ثم يهمس لنفسه: ".. ولكنها تدور".

فهؤلاء المجدفون الذين لا يقدسون الماضى ولا يقفون له احتراما كلما لمحوه على قارعة الطريق ؛ ليسوا بالضرورة آتين من الخطيئة. وقبل خمسة قرون أو يزيد تكبد مكيافيللى

ثمنا باهظا هو النفى والسجن ثم الموت، واستحق، إلى جانب ذلك، لعنات المحافظين باعتباره واضع أول مسمار فى نعش الأحكام الأخلاقية. ورغم أن الرجل كان يعلن دائما أنه على استعداد للعمل تحت إمرة من هم أقل ذكاء منه، إلا أنه لم يقبل أبدا أن يكون مهرجا فى البلاط. وكلما نظرت إلى نبيل عبد الفتاح، الذى قبل أن يعمل مع من هم أقل ذكاء، فعل ذلك حتى لا يكون حارسا مخادعا فى أى بلاط، فقد كانت ولازالت رسالته الأولى، كما أفهمها، إعادة القدرة والمرونة لمناهج مختلة ومتكلسة فى العقل العربى ودفعها إلى تجاوز الخطاب النقدى الاستشراقى الذى غادر الأرض وتركنا نقرأ ماضينا بعيونه. وربما سنعثر على ضالتنا فى نقد عبد الفتاح لتجربة الدولة العربية الحديثة خارج إطارات هذا "الوعى السالب" حسب تعبير خيرى منصور، وهى الإشكالية التى تنبه لها، مبكرا، مفكرون وطنيون من ضحايا الاستشراق مثل "فرانزفانون". من هنا أدرك عبد الفتاح أن القراءة العربية التقليدية للتاريخ باعتباره أحداثا جزئية لا رابط بينها تبدو قراءة تنتمى إلى العصور القروسطية، لذلك بحث فى الواقع الاجتماعى باعتباره مصدرا لتلك الأحداث ومن ثم تطورها

على نحو ما، وهو ما أشار إليه مالك بن نبى، بمزيد من الطرافة، عندما قال:"إن نيوتن بدلا من أن يأكل التفاحة قد استخرج معناها".

●●●

عندما قرأت خبرا عن فوز كتاب "الدين والدولة والطائفية" لـ"نبيل عبد الفتاح" بجائزة معرض الكتاب قبل عدة أعوام، قلت إن ثمة شيئا طيبا ربما تحرك فى الثقافة المصرية بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، رغم أن قامة مؤلف الكتاب تتجاوز كثيرا حجم الجائزة، لكنها عادة الجوائز المصرية التى تخطئ دائما أصحاب الاستحقاق؛ ومع ذلك لابد من أن نعد أنفسنا بالمزيد من التفاؤل الذى لم يحن أوانه على ما يبدو.

وقد منيت نفسى أن أقرأ حيثيات فوز الرجل، لكن ذلك لم يحدث لأسباب لا تتعلق بتقصير منى. فحاولت أن يكون هذا المقال تمثيلا عقلانيا لشىء من تلك الأسباب التى غيبتها الهيئة المانحة، إلا أننى أجد نفسى عاجزا عن كتابة مقدمات ممنهجة تليق بالرجل، بل ربما كنت الأكثر ميلا إلى ترك هذه الفوضى على عواهنها، لذلك أشعر بأننى فى حاجة ماسة إلى المزيد من الاستطراد، أو قول غير الممكن. ولأن كل عصر

يتخلق بأخلاق ناسه ؛ فقد امتلك هنرى ميللر جرأة القول بأنه على استعداد للتنازل عن يده اليمنى مقابل أن يكون صاحب مؤلفات صديقه السريالى لويس كارول، لكن يبدو أن هيئة الكتاب وكتبة تقاريرها لا يعرفون لويس كارول، لا يعرفون ميللر، وربما لا يعرفون نبيل عبد الفتاح نفسه.

وأظنني وجدت تفسيرا جزئيا للأمر، عندما سألت أكاديميا مرموقا: لماذا تكرهون عالما بحجم مصطفى ناصف؟ وظننت السؤال سيكون جارحا أكثر مما ينبغى، إلا أن صلف الإجابة كان أكبر من الاجتهاد فى فهم سؤالى، حيث قال الرجل على الفور: إن ناصف يضرب العلم فى مقتل ويعتبر أنه فوق المنهج. عندئذ حاولت تلقف التفاحة كما فعل نيوتن لأصرخ: وجدتها. فالفارق بين الرجلين، كما أشار مالك بن نبى، أن الأول حول التفاحة إلى فريسة لإشباع غريزة حيوانية فازدردها على الفور، أما الثانى فحولها إلى معنى مجاوزا الجوع البشرى إلى المعرفة.

وأمام هذا الأفق المتسع لا يندهش المرء من المعارف المتعددة والمتنوعة لنبيل عبد الفتاح. فعلم الاجتماع بالنسبة له نهر يتسع لعلم الإنسان وعلم الأجناس، والاقتصاد السياسى،

والأدب بكل فروعه، وليس مدهشا أن تقابل عبد الفتاح فيناقشك مناقشة معمقة فى أزمة قصيدة النثر، أو مشكلة السردية العربية الجديدة. ومع علم عبد الفتاح أن الغرب سرق علم الاجتماع من ابن خلدون ثم نسبه لأوجست كونت، إلا أنه يتعدى الكثير من هذه الإشكاليات إلى ما اصطلح عليه بـ"تعايش الثقافات" أو"عولمة المعرفة" التى تتجاوز، فى نظره، مفهومها النخبوى كونها نتاجا للعلوم والإبداع الرفيع، إلى كونها ممثلة لإجمالى المنتج المادى والروحى للأمة، الأمر الذى أدرج الكثير من المسحوقين فى دائرة المعرفة والاهتمام باعتبارهم، كذلك، من منتجى المعرفة. وهو بذلك ينقض المفهومين الشرقى والغربى للثقافة بما ينطويان عليه من عسف ودعوة للتشيؤ.

ربما لتلك المرونة المنهجية، أو إن شئنا، التعالى على المنهج، استطاعت الكثير من نتاجات عبد الفتاح أن تتصدر قائمة المساهمات المؤثرة فى قراءة الواقعين المصرى والعربى على السواء فى العشرين سنة الأخيرة على الأقل. ومن يقرأ نبوءة عبد الفتاح بمصير النظام السياسى المصرى يتأكد من رجاحة مقدماته التى ستظل شاهدا حيا على هذه النهاية التى تجاوزت الدراما الإغريقية من فرط سوداويتها.

أما لغة عبد الفتاح التى تمثل موقعا آسرا فى وعيه بالعالم، فستظل نبعا ملهما، لا يتجاوز شخص كاتبه فحسب بل يتفلت إلى مدونة اللغة الرواقية حينا والمخاتلة فى معظم الأحايين، لدرجة يستحيل فيها على المرء الفصل بين إشراقاته اللغوية ، نبل مسلكه، تواضعه، رعونته وفوضويته، ضحكته المجلجلة، وسمرته العارية.

لذلك، ورغم إدراكى الأكيد أن نبيل عبد الفتاح ليس قصيدة، إلا أنه عادة ما يُذكّرُنى بالشعر.

فمن سينتشل هذا الرجل من ضيافة الشعراء ؟! أعنى ضيافة الحمقى.

بشير السباعى..
الشاعر والمترجم والمؤرخ فى مداراته الطليعية

ذات ظهيرة، قبل أكثر من عشرين سنة، كنت أجلس بتحفظ ريفيٍ قديم على مقهى"زهرة البستان"في قلب عاصمة مخيفة ومتضخمة تستحث خائفا على اختراقها، غير أن ذلك كان حلما ينأى عن قطوف طالما حلمت بأنها باتت بين أصابعى. كانت جلستى إلى جوار رجل أخشى جديته وضحكته المتحفظة وكلامه المسرف فى قلّته. كان يضاعف خوفى وتحفظى أن ميراثا هائلا من المعرفة التى تتوزع بين الشعر والترجمة والتأريخ والنضال يتجسد أمامى فى هيئة بشرية أستطيع، بكل هذا الحذر، الاقتراب منها والتحدث إليها. اقتربت فعلا فرأيته ودودا باشّا. إنه بشير السباعى بينما يجلس وسط ثلة من شعراء جيلنا"جيل الثمانينيات" يقرأون عليه قصائدهم، وسرعان ما شجعنى بإيماءة راضية فقرأت مثلهم. كانت تعليقاته تشبهه فى ابتسارها وخبرتها وطبقاتها المعرفية.

بشير واحد من المعلمين الأوائل لجيلنا رغم أنه لم يقدم نفسه أبدا على أنه كذلك. قرأت قصيدة قصيرة أقول فى

مطلعها: "نحن الذين مع المجد والثمار المغلية نكبر يوما بعد يوم" وبعد أن أثنى الرجل على القصيدة ثناءه الشحيح المتحسب الدقيق، قال لى: عليك بحذف كلمة "المجد". لم أسأله عن الأسباب ولم أحذف المفردة التى اقترح حذفها وطبعت ديوانى "هواء لشجرات العام" وهى بين ثناياه، لكننى كلما مررت بها تذكرت أنه كان يتوجب علىّ حذفها. أدركت فيما بعد أسباب بشير السباعى. فهو واحد من أعداء القيم المطلقة، فضلا عن أنه واحد ممن أسهموا فى الدفاع المستبسل عن القيم الجمالية الجديدة لقصيدة النثر التى تكره بدورها القيم المطلقة، وتحتقر القضايا الكلية أيضا. المجد هنا شعور استعراضى يعبر عن نوستالجيا ليست فى صالح الشعر الجديد، المحتفى بحاضره أكثر من احتفائه بماضيه، كما أن شاعره أيضا أقل يقينا بنفسه ومن ثم فهو أقل خيلاء، إذن ليس ثمة مجد. المجد هنا قطعا يقوم على دماء آخرين والشعر أضعف وأنبل من أن يفعل ذلك. بشير يقول ذلك لأنه شاعر قبل كل شىء. شاعر قدم لنا ديوانا مهما ورائدا هو "تروبادور الصمت" قرأناه فى منتصف تسعينيات القرن الماضى بشغف الأبناء الذين يبحثون عن طوق للنجاة ولم يكن

ذلك هو العلامة الوحيدة على انحيازات بشير الجمالية، فقد ترجم لنا واحدا من أهم دواوين قصيدة النثر الفرنسية هو"سأم باريس" لشارل بودلير، وكانت تلك الترجمة مطلبا للحركة الشعرية العربية قاطبة، بعد أن شاعت ترجمة ديوان"أزهار الشر" لبودلير بينما لم ينتبه كثيرون لديوان سأم باريس رغم أصدائه الواسعة فى أوروبا باعتباره ديوانا مؤسسا فى تاريخ قصيدة النثر العالمية، كذلك ترجم "بلاء السديم" لمؤسس الحركة السوريالية المصرية "جورج حنين". لم تقتصر معارف بشير على الشعر بل ترجم عشرات الكتب حول أهم وأحدث الأفكار. فقد ترجم لتيموثى ميتشل وحده ثلاثة كتب مهمة هى: استعمار مصر، مصر فى الخطاب الأمريكى، والدولة والديمقراطية فى العالم العربى. كما ترجم واحدا من أهم كتب تزفيتان تودروف هو"فتح أمريكا.. مسألة الآخر" ترجم أيضا لهنرى لورنس أكثر من أربعة أعمال مهمة منها الحملة الفرنسية فى مصر، وكتابه عن فرنسا والعالم العربى الذى حمل عنوان"المملكة المستحيلة"، وثمة قائمة طويلة لن يتسع المكان لإحصائها. ولم تخل ترجمات السباعى من توسع وتعميق دائمين لمعارف شتى، هذا بالإضافة إلى كتابه المهم"مرايا الإنتلجنسيا".

رفض بشير الأبوة، لكنه ارتضى أن يكون حارسا من بعيد، ربما كى لا يترك ظلاله الكثيفة على تلامذة يسعون إلى التحرر، كما كان يحلم لهم. فحياة بشير وِمواقفه واحدة من أعلى تمثيلات الاستقلال. فقد كره بشير أن يكون داخل جيتو أو تيار، رفض الأبوة سوى فى الحدود التى تسمح له بأن يكون نفسه. كما رفض أيضا التورط فى العمل داخل مؤسسات الدولة واحتفظ معها دائما بمسافة آمنة تسمح له بأن يمارس حرية غير منقوصة. وكان موقفه هنا يتميز بدرجة واضحة من النضج والإيجابية دون مزايدات ودون تورط فى أية انحيازات.

ربما لكل ذلك عندما يُذكر اسم بشير السباعى فثمة منظومة من القيم العلمية والأخلاقية تعود إلى الوجود. فالرجل معلم لعدة أجيال من الشعراء، رائد دفع كثيرين لإعادة النظر فى موقفهم من الآخر، زلزل رواسخ الأفكار التى اعتاشت عليها ذاكرتنا الحجرية، عبر عصور من الأحادية التى تعددت طواطمها وتعاظمت نواهيها يوما إثر يوم. هو شاعر فى الأصل لكنه امتهن الترجمة والتأريخ، فقدم للثقافة العربية ما يربو على السبعين كتابا من أخطر وأهم الكتب

والمراجع فى التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة والفنون.

كنا الجيل الذى شهد تراجع مؤسسات الدولة ونكوصها على كافة المستويات. كانت صعوبات النشر جمة وكاسرة، وكانت المنابر، على ما هى عليه، محصنة بأسماء مجرمين عتاة ينتسبون للنظام السياسى عبر منظومة فساده الثقافى. كان بشير أول من دفع حركة الثقافة المستقلة للتحرر من أسر تلك المؤسسة إلى الأمام. دعمه لم ينقطع. شجع كافة محاولات الاستقلال منذ صدور مجلة "الكتابة السوداء" التى أصدرتها جماعة أصوات السبعينية وكذلك مجلة "إضاءة" التى حملت اسم الفريق السبعينى المناوئ، ثم دعم بكل قوة، وعلى مدار أكثر من عشرين عاما، مجلة "الكتابة الأخرى" التى أصدرها الشاعر هشام قشطة فى بداية التسعينيات من القرن الماضى بمشاركة أقرانه من شعراء جيل الثمانينيات وهى المجلة التى قدمت جيلين على الأقل من الشعراء والروائيين والباحثين. كان بشير وراء ملفات شديدة الأهمية والخطر أصدرتها المجلة. وكان انفتاح السباعى على الآخر أقدم من تصوراتنا كلها، حيث كان حفيا بحركات التمرد التى قادها فنانون كبار فى الثقافة العالمية، فقدم لنا المدرسة

السريالية عبر أنصع نماذجها، حيث ترجم بيانات السوريالية و"بلاء السديم"، كما أشرنا، لجورج حنين أحد مؤسسى الحركة السوريالية التاريخية فى فرنسا التى كان على رأسها الشاعر الفرنسى أندريه بروتون. كان حنين واحدا من أكبر داعمى حركة السريالية المصرية حيث هو من أطلقها بكراستين مهمتين صدرت أولاهما عام ١٩٣٤ ثم أسس جماعة الفن والحرية التى تجاوزت نشاطاتها الواسعة أزمة المركز الفرنسى للحركة الأم عقب الحرب العالمية الثانية. وربما كانت العلاقة الوثيقة التى ربطت بين تروتسكى وبروتون على خلفية احتفاء السوريالية بالاشتراكية الثورية واحدة من الأسباب التى جعلت من بشير السباعى أحد أهم مشايعيها والمحتفين بها.

لا أريد التوقف طويلا هنا أمام الانتماء السياسى للسباعى، فهذا مما جر عليه متاعب لا تنتهى، لكنه ظل قويا مقاوما متماسكا ومصارعا لأنواء شتى، لذلك أشعر بحاجة لأن أستعير من "إسحق دويتشر" اسما من أسماء كثيرة أطلقها على تروتسكى هو"النبى المسلح" فالسباعى هنا رمز لمثقف محسوب بدرجة ما على جيل السبعينيات فى مصر

ولاقى ما لاقاه هذا الجيل من عنت واستبعاد بسبب نفوره فى معظم أطيافه من المؤسسة الرسمية، غير أن بشير كان أكثر التصاقا بالسياسة فى أكثر مفاصلها تشددا وجذرية، حيث كان انتماؤه يتضاعف يوما بعد يوم للاشتراكية الثورية لذلك كان ولازال يرفض أية تحالفات مع التيارات الإصلاحية لأنها عادة ماتنتهى بهزيمة اليسار لصالح البرجوازية والقوى المعادية للشعب. كان هذا موقفه بعد الخامس والعشرين من يناير ولازال على الموقف نفسه، من هنا لم تنقطع دعوته لهؤلاء إلى العمل بجوار الناس ومعهم بعيدا عن الأشكال الفوقية للسلطة فهذا مما يمكن من خلق الظهير الشعبى القادر على إنضاج الثورة وإنجازها من أسفل وليس من أعلى قمة الهرم. وقد تابعنا موقف بشير السباعى بعد الخامس والعشرين من يناير وهو يحذر من استمرار"المباركية من دون مبارك" وهو أمر لازالت عوارضه تفاجئنا بشكل يومى، لذلك ليس مدهشا أن ينقل عن جورج حنين قوله: إن مصر قادرة على تبديد كل يأس وكل أمل!!

كره السباعى الفاشية فى كل صورها وأخذه معتقده السياسى إلى الإدانة الكاملة لفكرة الحرب أيا كانت، كما

أدان حكم العسكر على مدار عمره وفى كل بقاع العالم وكان تحذيره قاطعا للمصريين بعد الخامس والعشرين من يناير. وقد كان موقف اليسار الثورى سباقا فى إدانة الفاشية والعنصرية بداية من الحرب الأولى حتى أيامنا. وسنلحظ هنا أن تعامل بشير السباعى مع المركزية الأوروبية كان مقصورا على من قدموا أطروحات عدة لنقدها ونقضها لاسيما من الطليعة اليسارية من مفكرى الحداثة وما بعدها، وكان وعيه هنا ناجزا فى تشكيل صورة كلية لمنجزه تتوافق وتعزز معتقداته السياسية والعقائدية.

وهاهو بشير السباعى يبلغ السبعين، حيث ولد فى الخامس عشر من يناير عام ١٩٤٤ بمحافظة الشرقية بعد أن راكم منجزا هائلا سيظل ملمحا من ملامح الثقافتين المصرية والعربية لمدى غير منظور، غير أن مؤسستنا الثقافية التى تبحث كل عام عن خيول متهاوية العقل هرمة الروح كى تمنحها جوائزها لم تفكر أبدا فى أن تكرم بشير السباعى كما يليق بأمة تحترم كتابها وفنانيها ومفكريها. أعلم طبعا أن بشير الذى علمنا فضيلة التعفف والاستغناء ربما اندهش مما أقول هنا، لكننى أراه حقا للثقافة المصرية وحقا لقيمها الرفيعة قبل أن يكون حقا لبشير السباعى.

الباب الثانى :

المختلف والمؤتلف بين غبار ثورتين

أحمد كمال أبو المجد..
رجل التحولات السياسية وكاتب الأنظمة

كثيرون يبدون دهشة كبيرة عندما يقترن اسم الدكتور أحمد كمال أبو المجد بلقب"المفكر الإسلامى". ولاشك أن هؤلاء محقون فى الكثير من دهشتهم. لكننا، وعلى ما جرت عليه العادة العربية، سنتعامل مع الأمر على كونه واحدا من مبالغات ليست فى محلها، وهذا لا يعنى بحال تقليلا من شأن الرجل، بل هو محاولة لوضع الأشياء فى مواضعها الصحيحة. فارتباط الرجل بالشأن السياسى العام وإصداره عدة كتب حول بنية الدولة المصرية الوسطية كما يراها وطرحه للعديد من المبادرات السياسية فى أزمنة وعصور مختلفة جعل أنصاره يقدمونه باعتباره مفكرا أكثر منه سياسيا، لاسيما وأن أطروحاته ارتبطت بالنموذج الوسطى الذى كان ممثلا له فى مواقع سياسية متعددة شغلها على مدار عمره المديد. غير أن لقب"المفكر الإسلامى" لم يكن بأى حال تعبيرا عن منجز فكرى واضح الملامح قدمه الرجل على مدار كتابته الصحفية والسياسية والأكاديمية قدر كونه تعبيرا

يذيعه قطاع من النخبة ويتمسك به تقديرا لرجل له الكثير وعليه ما هو أكثر.

وبصفة عامة، يبدو وضع الألقاب فى غير مكانها عادة عربية ليست مدهشة وإن كانت شديدة التزيد وتعكس قدرا هائلا من سوء الفهم. وليس فى ذلك افتئات على دور الرجل كسياسى ورجل عام بارع، لكننى لا أكاد أعرف للرجل أكثر من ثلاثة كتب، معظمها يجرى مجرى المقالة ومن ثم الأفكار المجتزأة. فإلى جانب بعض المؤلفات القانونية المتخصصة ذات الصبغة الأكاديمية التى لم تصل للقارئ العام بطبيعة الحال قدم الدكتور أبو المجد ثلاثة كتب، فيما أعلم، على مدار أكثر من خمسين عاما بدأت بكتابه «دراسات فى المجتمع العربى» الذى صدر فى القاهرة، عام ١٩٦٢ ثم كتابه"حوار لا مواجهة"القاهرة، عام ١٩٨٨ ثم كتابه"رؤية إسلامية معاصرة"القاهرة، عام ١٩٩١ وثمة خط يبدو مستقيما يجمع بين الكتب الثلاثة التى أصدرها أبوالمجد وهو البحث عن موطئ قدم لمجتمع إسلامى مستنير لا ينكر الماضى لكنه لا يقدسه، فى الوقت نفسه يقرأ الحاضر حسب مقتضياته وحسب حاجات العصر منوها فى ذلك عن قدرة الفقه

الإسلامى على التطور والتنوع والاستجابة لحاجات العصر. وقد كانت مواقفه الداعمة أبدا لفكرة الحوار بابا ذهبيا لوجوده كشخصية فاعلة فى كافة العهود منذ الحقبة الناصرية وحتى لحظتنا الراهنة. فلم تكن ثمة تناقضات كبيرة بينه وبين جميع الأنظمة الجمهورية المتوالية؛ لأنه يستمسك بما يراه وسطية تقف على درجة عالية من المثالية التى تسعى لإزاحة عشرات التناقضات من طريق الحوار المجتمعى، فى إطار حرص الرجل على الوقوف على مسافة متساوية من الجميع، مما هيأ له مكانا بينها جميعا، سواء تعلق هذا الموقف بتكتلات داخل السلطة الحاكمة أو أية تكتلات خارجها. وثمة موقف نظرى يبدو شديد المثالية يروج له عادة أبناء الفكر الوسطى وبينهم أبو المجد. وثمة قبول عام كان يحظى به أصحاب تلك الدعوات قبل هبوب ثورات الربيع العربى، وكان الأمر يحصل على وجاهته من كونه ردا عاقلا ورشيدا على سلطات حاكمة شبه فاشية. فسلطات هذا الزمان اعتمدت على الإقصاء والتشريد ونفى الخصوم، كما اعتمدت على الصوت الواحد والحزب الواحد والحاكم الواحد، فضلا عن الفساد المؤسسى ومظاهر الظلم الاجتماعى الحاد والعنيف

الذى كرس تفاوتا مجتمعيا مخيفا. من هنا بدا الخطاب الإسلامى، الذى يدعو له أبو المجد مع تكتلات أخرى كبيرة وأكثر تنظيما، خطابا تطهريا يقدم نفسه باعتباره قادرا على إنقاذ الأمة من براثن طغاتها. كان خطاب أبو المجد يتميز، إلى جانب ذلك، بإلمامه بتصور حداثى لدولة سيادة القانون والحريات والمساواة والعدالة.غير أن البنـاء الأكثر عقلانية فى هذا السياق، والذى بدا مستمسكا ولازال بالمرجعية الإسلامية لم يصنعه أبوالمجد، بل صنعه مفكرون أثقل وزنا منه، كان مشروعهم الذى ارتبط بدراسات فلسفية بالأساس، ينصب على تطوير الفكرة الإسلامية عبر الاستفادة من مفاهيم شديدة الحداثة مصدرها الفلسفات الغربية الحديثة. سنرى ذلك لدى مفكرين مغاربة مؤثرين مثل محمد عابد الجابرى ومحمد أركون وطه عبد الرحمن، وسيتجسد هذا النموذج فى مصر لدى حسن حنفى ونصر أبو زيد ومحمود إسماعيل وعلى مبروك وفى الإمارات لدى علوى الهامشى ولدى بعض دارسى الأنثربولوجيا والسيسيوتاريخ مثل فراس السواح وسيد القمنى ولدى عدد كبير من مفكرى الشام. وكانت هناك دعوات متكررة لتجاوز الفقه القديم وإعادة ضخ

الحياة فى شرايينه بتخليصه من عنفه وتجاوزاته وماضويته. وقد شغلت فكرة تاريخية النص القرآنى وأزليته جزءا كبيرا من هذا الصراع العميق الذى تتجاهله الأدبيات العارضة والمسطحة لدى أبى المجد، وهى قضية تتشابه مع قضايا كبرى شائكة داخل هذا الإطار مثل تنقية كتب الحديث وتنقية الفقه، وهى قضايا تلقى مقاومة دموية حال طرحها للنقاش. ولعل المقدمة التى كتبها أبو المجد لأول طبعة مصرية لرواية"أولاد حارتنا"لروائى نوبل نجيب محفوظ ترصد مفصلا خطيرا من هذه الأزمة التى كادت تودى بمحفوظ إلى القتل إثر فتوى من مفتى الجماعة الإسلامية عمر عبد الرحمن الذى أجاز فيها قتل محفوظ كما أجاز، من قبل، اغتيال سلمان رشدى، معتبرا أن كل من يهاجم الإسلام لابد أن يقتل. وسط ذلك أدهشنى بحق أن تكون مقدمة أبى المجد معنية بقضية تحولت إلى قضية مركزية، حيث قال نجيب محفوظ فى ندوة عقدتها جريدة الأهرام تحت عنوان «نحو مشروع حضارى عربى»: إن أى مشروع حضارى عربى لا بد أن يقوم على الإسلام، وعلى العلم، ورغم مساحات المراوغة التى تضمنتها

كلمة محفوظ على عادته إلا أن أبا المجد قال تعقيبا على ذلك: لقد وصلت رسالتك، وهى على قصرها، واضحة وصريحة ومستقيمة لا تحتمل التأويل. وعلى إثر ذلك طلب الاستزادة من نجيب محفوظ غير أن الرجل كان يفضل دائما الانحياز للاختصارات غير المخلة، وكأن أبا المجد لم يقرأ من محفوظ سوى كلمة"الإسلام"وكأن اقترانها بمفردة العلم لم يكن يستحق التعليق.

تلك الانحيازات ربما تفسر الدور الذى لعبه الدكتور أبو المجد عند اعتلاء الإخوان المسلمين سدة الحكم فى مصر فى منتصف عام ٢٠١٢، حيث التقى محمد مرسى غير مرة، وقاوم وانتقد جميع المحاولات التى بذلتها القوى السياسية لإزاحة الإخوان من السلطة، وكان قد ارتأى وقتها أن تلك الإزاحة ستكون نذيرا بحرب أهلية وانقسام مجتمعى خطير، غير أن ذلك لم يمنعه من توجيه الانتقادات لحكم مرسى بسبب ما قال إنه غياب للرشد السياسى كما أسماه وكذلك بسبب التخبط فى تصريحات التنفيذيين المحيطين بمرسى والذى رآه الرجل مقدمة لانهيار حكم الإخوان، وقد أفصح

أبو المجد فيما بعد عن مضمون الرسالة الأخيرة التى وجهها لمرسى حول شعارات الإنجاز التى يتم إطلاقها بدرجة عالية من المجانية لكنها لا تلقى أى صدى فى الواقع لعدم مصداقيتها لأنها لا تصادف نفاذا حقيقيا بل ربما تصادف ترويجا إعلاميا على درجة عالية من الغوغائية ليس أكثر.ولم يكن غريبا، طبقا لمواقف أبى المجد، فقد كان من المفهوم أن يعود الرجل ليؤيد قائمة مطالب الثالث من يوليو ٢٠١٣ التى أعقبت الثورة الشعبية العارمة على حكم الإخوان فى الثلاثين من يونيو فى العام نفسه، وتعيين رئيس المحكمة الدستورية العليا رئيسا مؤقتا للبلاد لمدة عام. ورغم تأييد أبى المجد لثورة الثلاثين من يونيو فإنه تدخل غير مرة للنهوض بأدوار تفاوضية للوساطة بين الإخوان والدولة وتجلى ذلك فى مشهدين لم يحققا نجاحا يذكر.

المشهد الأول يتمثل فى تلك الورقة التى قدمها أبو المجد للرئيس عدلى منصور وللفريق أول عبد الفتاح السيسى آنذاك حول"إصلاح الخطاب الدينى"، وكانت الورقة تستهدف شيئا جوهريا هو إعادة دمج الإسلاميين فى الحكم بعد إعادة

تأهيلهم،غير أن الورقة لم تلق صدى لدى مؤسسة الحكم رغم إفصاح «أبو المجد» فيما بعد عن شكر وجهه للرئيس السابق عدلى منصور على اتصاله به وثنائه على محتوى تلك الورقة، ولم يفت «أبو المجد» أن يستنكر موقف السيسى الذى تجاهل الورقة ولم يرد عليها مما دفعه لكيل المديح لمنصور والقدح فى السيسى فى حوار نشرته «المصرى اليوم» واصفا منصور بأنه عالم جليل وواصفا السيسى بأنه خفيف الوزن مقارنة بمنصور، غير أن تلك التصريحات تغيرت كلية عندما التقى أبو المجد بالرئيس السيسى وقدم له ورقته الإصلاحية مرة أخرى.

المشهد الثانى الذى أعاد أبى المجد للحياة كان يتمثل فى تلك المبادرة التى أعلنت عنها الصحف المصرية فى نهاية شهر نوفمبر ٢٠١٣ والتى سرعان ما تحدث عنها أبا المجد لعشرات الصحف مؤكدا فشلها بسبب انقسام الإخوان وسيطرة التيار المتشدد على التنظيم، وهو الفصيل الذى يراه أبو المجد سببا مباشرا فى انهيار حكم الإخوان. ولاشك فى أن الفشل الذى منى به المشروع الإسلامى بعد ثورات الربيع

العربى دفع جميع الخطابات الوسطية إلى التراجع خطوات كبيرة إلى الوراء لذلك لم يكن غريبا أن يكون مصير وساطات وأوراق أبى المجد عرضة للإهمال وعدم الانتباه.

خارج السياق المحافظ الذى حرص أبو المجد على طرح نفسه من خلاله. ثمة جوانب كثيرة مسكوت عنها فى علاقته بالسلطة، حيث يظل اتهامه بممالأة جميع الأنظمة الجمهورية اتهاما يلقى صدى فى الواقع لاسيما وأنه يعد واحدا من مؤسسى التنظيم الطليعى ثم منظمة الشباب مع نظام الرئيس عبد الناصر، وفى عهد الرئيس السادات تم اختياره وزيرا للإعلام والثقافة عقب حرب أكتوبر ثم كان واحدا من أقرب الرجال لسوزان مبارك ولنظام مبارك فى جملته. أما أخطر التهم الموجهة للرجل فهى شراكته لرجل الأعمال الهارب طاهر حلمى فى مكتب محاماة أمريكى عالمى متهم بأنه ممول من المخابرات الأمريكية هو مكتب"بيكر آند ماكنزى"الذى يملك أكثر من خمسين فرعا على مستوى العالم. وقد سبق لبعض الصحف المصرية أن نشرت تقارير عن أن هذا المكتب، طبقا لوثائق ويكليكس، كان سببا فى خسارة مصر لأكثر من ١٠٩

مليارات دولار بسبب صفقات عقدها لصالح رجال أعمال أمريكيين فى بيع القطاع العام وكان أبو المجد عرّابا للكثير من تلك الصفقات، وقد كان أخطر الاتهامات التى وجهت لأبى المجد إبان ترافعه عن الحكومة المصرية فى قضية أرض طابا التى باعتها الحكومة لوجيه سياج أنه كان محاميا فى الوقت نفسه لوجيه سياج وربما تعزز هذا الاتهام بعد أن خسرت مصر القضية وأصبحت ملزمة بسداد سبعمائة مليون دولار لخصمها. هذا جانب من شخصية الدكتور أحمد كمال أبو المجد السياسى والمثقف وأستاذ القانون ورجل الأنظمة السياسية فى كل تحولاتها.

علاء عبد الفتاح..
نبى مهزوم أم بطل من ورق؟!

دُعيت لواحدة من الجلسات التى عقدها ثوار قدامى وجدد تحت عنوان"وحدة اليسار"، وكانت ثورة الخامس والعشرين من يناير لم تزل فى الميدان، حيث روى اليسارى والمناضل"كمال خليل"حكاية عن سؤال وجهه إليه أحد ضباط أمن الدولة أثناء حبسه لثلاثة أيام فى بداية ثورة يناير، قائلا له: كنتم"جيل السبعينيات"تعكفون الليالى على قراءة ماركس وإنجلز ثم تخرجون علينا بشعار"يسقط النظام"، أما هؤلاء الشباب،"ويقصد شباب الثورة"، فليس لهم علاقة بهذا التراث، فقط يجلسون إلى الفيس بوك ومع ذلك يخرجون علينا بالشعار نفسه، ففى أى خانة تصنفهم؟ كان رد خليل أنه لا يصنفهم فى أية خانة، فأجابه الضابط بأن جهاز الأمن يضعهم فى صفوف اليسار. ورغم عدم دقة التصنيف بالمعنى المنهجى فإنه كان يعكس جانبا من الحقيقة الضالة، أو بالأحرى، الحقيقة التى لم تجد طريقها إلى الصواب ومن ثم التحقق، حيث كان شباب الثورة يلتف، ببراءة وطوباوية،

حول عدد من المطالب التى كانت تؤكد الأشواق العامة لعدد من القيم الكبرى وعلى رأسها العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية، وهو الأمر الذى كان يراه واحد مثل الدكتور محمد البرادعى،وقتها، شكلا من أشكال الاشتراكية الديمقراطية فى أرقى وأحدث صورها. غير أن المآلات والنتائج التى انتهت إليها مواقع شباب الثورة فى المنتج السياسى الأخير لم تكن على ذات الدرجة من النقاء، العكس ربما هو الصحيح. فما الذى حدث؟ وكيف يمكننا فى هذا السياق أن نقرأ المدلول السياسى للحكم الصادر ضد الناشط السياسى علاء عبد الفتاح، المعنى بهذه القراءة، فى قضية من قضايا التعبير. هل نجحت الثورة فعلا؟ وهل كان شبابها يملك تصورا للمستقبل تم إجهاضه تحت سنابك السلطة؟ أم أن غياب الرشد السياسى لثورة فقدت ظهيرها مبكرا كان تربة ملائمة لهزيمة ثوارها؟ وبالقدر الذى تبدو فيه تلك الأسئلة معلقة تبدو كذلك مقولات علاء عبد الفتاح المدون والناشط الذى فقد حريته بصور مختلفة وفى أزمنة مختلفة، حيث لا يمكننا أن نعثر على خطاب سياسى لعلاء أو رفاقه بحيث نتوقف أمامه لمناقشته أو الدفع فى طريق تطويره والنقاش حول أبعاده وتجذراته فى

الواقع السياسى والاجتماعى اللهم إلا مجموعة من الشعارات التظاهراتية غير الرشيدة التى كانت تحض على هدم مؤسسات الدولة لاسيما المؤسسة العسكرية التى تتمتع بعلاقات خاصة وتاريخية مع شعبها، وهى صورة انتهت إلى فقدان شباب الثورة الكثير من زخم حضورهم. ولم يكن غياب الخطاب السياسى المتماسك لدى عبد الفتاح دليلا على سوء الفهم لثورة تم الاحتفاء بغياب قائد لها بل كان سوء الفهم يتمثل أيضا فى رفض مسرف فى مبالغته للواقع المصرى الجديد بكافة تفاصيله دون أن يطرح شباب الثورة بدائل ممكنة لواقع مأزوم على مدار أكثر من أربعين عاما، فبدا خطابهم السياسى أجوف حد الخواء، ومن ثم تآكلت مصداقية رفاق الثورة فى الشارع الذى تحرك تحت شعاراتهم فى البداية وظل مؤمنا بهم لزمن ليس قصيرا من عمر الثورة.

كان الفشل مآلا متوقعا، فدفع رفاق الثورة أثمانا متفاوتة، حيث دفع الناشط علاء عبد الفتاح ثمنا باهظا منذ عصر الرئيس المخلوع حسنى مبارك. ففى عام ٢٠٠٦، وأثناء وقفة احتجاجية سلمية من أجل استقلال القضاء المصرى، اعتقل

علاء مع ١٠ آخرين من المدونين ونشطاء الديمقراطية، مما أدى إلى اندلاع احتجاجات داخل وخارج مصر، وأسس رفقاؤه مدونة جديدة حملت وقتها عنوان:"الحرية لعلاء"خصصت للمطالبة بإطلاق سراحه. وقد أطلقت السلطة سراحه بعد مرور شهر ونصف الشهر من حبسه.

وفي الثلاثين من أكتوبر عام ٢٠١١ عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير بثمانية أشهر تقريبا، قررت النيابة العسكرية حبس علاء على ذمة التحقيق لمدة ١٥ يوما، على خلفية اتهامه بالتحريض والاشتراك فى التعدى على أفراد القوات المسلحة وإتلاف معدات مملوكة للمؤسسة العسكرية والتظاهر والتجمهر وتكدير الأمن والسلم العام فى الأحداث التى أطلق عليها أحداث"ماسبيرو"وهى واقعة راح ضحيتها ما يقرب من خمسة وعشرين ضحية كلهم تقريبا من الأقباط، بعضهم دهسته مدرعات الجيش والغالبية قتلوا بأسلحة بيضاء ورصاصات من مسدسات إسرائيلية الصنع.

تفاقمت مشكلة علاء عبد الفتاح فى تلك الواقعة عندما أصر على رفض الاعتراف بشرعية المحاكمة العسكرية له كمدنى، ومن ثم رفض الإجابة على كافة الأسئلة التى وجهتها

له النيابة العسكرية، فأحيل إثر ذلك إلى نيابة أمن الدولة العليا، التى أفرجت عنه بعد مرور ما يقرب من الشهرين على حبسه. وفى شهر نوفمبر ٢٠١٣ اعتقل علاء بتهمة التحريض على التظاهر ضد الدستور الجديد أمام مجلس الشورى، ثم تم الإفراج عنه على ذمة القضية، كذلك قبض عليه بتهمة خروجه على قانون التظاهر الذى رفضه الثوار مطلقين تصريحات شديدة الخطر رددها علاء عبد الفتاح نفسه مع زملائه أحمد دومة وأحمد ماهر من قبيل"حتمية كسر إرادة الدولة". وسط كل هذا الحراك المضطرب والمضطرم ثمة عشرات الأسئلة لم تزل معلقة على بوابات الثورة. فما معنى أن يكون"علاء عبد الفتاح"أحد وجوه ثورتى الخامس والعشرين من يناير والثلاثين من يونيو سجينا وفاقدا لحريته وقد كان، على مدار السنوات الأربع الماضية، واحدا من أبرز الحاضرين فى مشاهد سياسية معظمها مناهض للسلطة أيا كان محتواها وأيا كان طرحها السياسى والمجتمعى، كما كان شريكا فى كل الفعاليات التى أطلقها شباب الثورة ضد المجلس الأعلى للقوات المسلحة عقب عدة أشهر من تكليفه بإدارة شئون مصر بعد خلع الرئيس الأسبق حسنى مبارك،

وربما كان العداء للجيش أحد أسباب تحوله الكبير، ككثير من رفاقه، الذين تحولوا إثر تلك القناعة، إلى مؤيدين وداعمين لترشح الإخوانى محمد مرسى رئيسا لمصر تحت شعارات تلتمس رئاسة مدنية خلاصا مما أسموه حكم"العسكر"وهو المسمى الذى تطور بعد ثورة الثلاثين من يونيو ليطلق عليه حكم"البيادة"فى إشارة إلى حكم الجيش. فقد رأى الثوار وقتها، وبينهم علاء عبد الفتاح، أن دعم مرشح النظام القديم الفريق أحمد شفيق هو، فى مضمونه، تعزيز للنظام الذى أزاحته الثورة وكذلك تعزيز لسلطة الجيش باعتبار أن الفريق شفيق أحد أبنائه، هذا رغم أن الحقائق أكدت فيما بعد أن مرسى لم يكن المرشح المدنى المأمول كما لم يكن الجيش على وفاق مع الفريق شفيق. وعقب شهور قليلة من حكم الإخوان تحول موقف علاء عبد الفتاح مع رفاقه من تأييد الإخوان المسلمين إلى معاداتهم والعمل على إسقاطهم، حيث كان ذلك بابا جديدا للحضور الواسع فى المشهد السياسى المضطرب، الذى انتهى بإسقاط الإخوان المسلمين بقوة الدفع الجماهيرى الغفير والكاسح، الذى أفرز قيادات جديدة تجاوزت حماقات الثورة الأولى، وكان فى مقدمة نجوم المشهد الجديد شباب

حركة تمرد وعلى رأسهم الشاب محمود بدر. كان التفسير الأقرب لقلب وعقل العامة أن نجاح الثلاثين من يونيو يعنى بالضرورة فشل ثورتهم الأولى، ومن ثم انسحاب وتوارى شبابها وخروجهم من المشهد السياسى لفترة ليست قليلة، وكان ذلك أحد الأسباب التى دفعت علاء ورفاقه إلى إعلان حرب سياسية وإعلامية على شباب حركة تمرد تحت دعاوى ارتمائها فى أحضان الدولة ومن ثم إجهاض الثورة، وقد استمر الصراع ولا يزال وإن كانت يد الدولة باتت الأعلى بعد تبلور تجلياتها بأكثر من معنى لأول مرة منذ ثورة الخامس والعشرين من يناير.

وأظن أن إشكالية خطاب علاء عبد الفتاح ورفاقه أتت من خضوعهم لنمط متواتر وثابت يعتمد الشائع فى القراءة التحليلية لطليعة شبه ثورية هى فى حقيقتها جزء لا يتجزأ من البرجوازية التى ارتبطت بأجندات أجنبية، بحسن وبسوء قصد، وهى مجموعات ذهبت ضحية جهلها بتاريخها، حيث كان ثمة إصرار على اختصار الميراث المصرى الباهظ من القمع الذى يتمثل فى تركة الدولة الشمولية، كنموذج استغرق عشرات السنين، فى لحظة عمرها شهور قليلة استغرقتها

ثورة الخامس والعشرين من يناير. وتحت تأثير التسرع والمثالية اندفع شباب الثورة وفى مقدمتهم علاء عبد الفتاح إلى فتح كل الملفات الفئوية والعقائدية والاقتصادية والسياسية، فى الوقت الذى لم تطرح فيه تلك القوى بدائل يمكنها أن تحوز إجماعا وطنيا مقبولا فى حده الأدنى، بل غلب على كافة الأطروحات تكريسا لتوجهات سياسية عكست انشغالات ذات صفات جهوية أحيانا وفئوية فى معظم الأحايين، وهو ما أفقدها حسها الوطنى الجامع ومن ثم زخمها الشعبى. من ناحية أخرى بدا تعاطى شباب الثورة مع الخطاب الأورو أمريكى غير مفهوم وغير محدد الملامح لاسيما وأن حالة من الارتياب تجاه الأقليات بدت مكرسة بصورة غير مسبوقة فى السكوت الأمريكى على انتهاكات واسعة ضد الأقباط، بالإضافة إلى ما كشفت عنه الاضطرابات اليومية والتدخلات الخارجية فى تعزيز فضاء المؤامرة لدى عامة الشعب. وقد تعزز هذا المناخ السلبى ضد شباب الثورة فى ظل غياب الحس الوطنى الجامع لدى القطاع الأعظم من القوى السياسية الطافية على سطح المشهد، وكانت القوى الثورية التى ينتمى إليها علاء عبد الفتاح فى مقدمة القوى

المتهمة بتكريس هذا المناخ. وأمام هذا الترهل والانقسام انتهت المساءلة السياسية العسيرة التى تعرض لها المجلس الأعلى للقوات المسلحة إبان حكمه البلاد مع الثورة الأولى إلى تجدد شرعية الجيش فى الشارع المصرى ليخرج من كانوا يهتفون ضده إلى المطالبة بعودته فى الثلاثين من يونيو. هذا ربما يؤكد أن أطراف اللعبة السياسية بعد الثورة الأولى، فضلا عن كونهم مارسوا انتهازية تدنت وسائلها وأدواتها يوما إثر يوم، فقد أدركوا أيضا أنهم خرجوا من معطف الجماهير إلى معطف المصالح والتراشقات فكان البديل هو معاداة السلطة، أى سلطة، بغرض البقاء فى المشهد مهما كانت الأثمان.

فى هذا السياق، لم يكن الناشط علاء عبد الفتاح، الذى يعانى على ما يبدو طفولة ثورية، سوى ضحية لغوغائية سياسية فقدت حيويتها لأنها لم تدرك المسافة العاقلة بين الثورة والدولة فكان المصير الذى خسرت به الثورة الكثير من حيويتها، بحيث لم يعد شبابها مسئولا فحسب عن مصير لم يكن جيدا بالنسبة لهم، بل يظل مسئولا كذلك عن عدم استكمال الثورة لأهدافها قبل أن تعود الدولة مكرهة إلى مفاهيمها وأدواتها التقليدية المرشحة لأن تكون أكثر قمعا.

عدلى منصور
خطاب وداعى يليق بقاض جليل

رسالة وداعية رفيعة تركها رئيس الجمهورية المؤقت عدلى منصور على مقعد الرئاسة قبل أن يغادره بساعات قلائل، تاركا مقعده للرئيس المنتخب عبد الفتاح السيسى. كثيرون اندهشوا من طلب البعض تدريس كلمته فى كليات الحقوق. لم أكن قد استمعت إليها بعد، غير أننى عندما طالعتها مكتوبة أدهشتنى أمارات لم تكن غريبة على الرئيس منصور. فالقاضى الجليل يمتلك بلاغته الخاصة، هكذا معظم القضاة العارفين بفلسفة القانون. من هنا ظلت علاقته باللغة علاقة فريدة فى كل خطاباته على التقريب. فبقدر إجرائية اللغة ووظيفيتها إلا أنها لا تتخلى أبدا عن كونها استبطانا حقيقيا وعميقا لفكرة العدالة. أجل، فكل من اخترعوا القواعد القانونية كانوا حكماء وخطباء بين أقوامهم، شهدنا ذلك فى مصر القديمة وفى أثينا، وفى بيزنطة وفى الحضارة السومرية منذ اكتشاف ألواح جستنيان. فمن أصلاب هؤلاء يأتى عدلى منصور محملا برحيق المعرفة النوعية التى كانت

تمثل فى بداية حكمه عبئا ثقيلا عليه، حيث كانت لا تسعفه فى التحدث إلى العامة، وهنا بدا الفرق بين رجل القانون ورجل السياسة، ربما لذلك اختار الرئيس المؤقت أن يفوض فى الشأن التنفيذى رؤساء وزارته، وأن يبقى مشرعا، حسبما فرضت عليه الأدوار السياسية فى ظل غياب البرلمان خلال الفترة الانتقالية. كان الرجل شديد الحرص على الجمع والتوفيق بين متناقضين: كيف يصون الحريات صونا كاملا غير منقوص وفى الوقت نفسه يضرب بيد القانون كل من تسول له نفسه إهانة الواجب أو محاولة هدم النظام. ويعد نجاح منصور فى خلق هذا التوازن الفريد بين الحقوق والحريات فى المنظومة التشريعية بعد الثورة واحدا من أهم أسباب نجاح الدولة وتبلور خطاب مشروعيتها. فقواعد العدالة كانت عاصما للجميع من الطوفان. طوفان المزايدات والمؤامرات، فضلا عن الحاجة الحقيقية للدولة إلى ضبط منظومتها التشريعية وفق واقع جديد كان يجب أن يتساوى فيه الكافة، دون أن تتحول الدولة نفسها إلى منتج للظلم كما شهدنا فى عصرين متلاحقين لنظامى مبارك ومرسى.

كان وجود عدلى منصور على رأس السلطة فى تلك الفترة الخطرة من عمر مصر اختيارا مدققا. فقد طرحته حركة تمرد

التى قادت ثورة الثلاثين من يونيو ضمن مطالبها التى انتهت إلى الإطاحة بالرئيس الإخوانى محمد مرسى. وكان قبول الرجل لمهمة مهيبة وشديدة الخطر عملا وطنيا بامتياز قرنه منصور فى أحد خطاباته بأنه كان البديل للفوضى والحرب الأهلية. بهذا الالتزام الوطنى عالج منصور مهام موقعه، واضعا بين ناظريه حتمية إعلاء القيم الأساسية للدولة المصرية. فعمل على خطاب سياسى يحاول رأب الصدع بين الكتل الاجتماعية والسياسية المتناحرة، فى سياق توحيد العقل الجمعى حول ثوابت الوطن من وحدة واستقلال لاسيما فيما يتعلق بوحدة النسيج الوطنى لعنصرى الأمة. كذلك لم يكن منصور غافلا عن مواضع قوة الدولة، ولم يكن فى ذلك مرتجفا أمام الخطابات العنيفة وغير المسئولة لبعض الفصائل السياسية عديمة التأثير، فعندما استدعت الحاجة تنظيم حق التظاهر، صدر القانون الذى ينظم هذا الحق دون النظر للمزايدات التى طالته وطالت تشريعه، وكان رده على ذلك أن الدولة يجب أن تكون موجودة حتى لو أخطأت، لأن أخطاء الدولة قابلة للمراجعة فى كل الأحوال لأنها أيضا كيان ليس معصوما وإن سعت إلى أن تكون كذلك، فى الوقت نفسه

لا يجب أن يقود الموقف الفردى اتجاهات الجماعة مهما كان صاحبه ومهما كانت القوة التى تدعمه، فالثورة كسرت احتكار كل شيء وأى شيء،وليس ثمة حاجة لكهنة جدد يدعون البراءة المطلقة دائما، ويفترضون السوء فى غيرهم أبدا.

إن روح رجل القانون فى عدلى منصور كانت مصانة دائما باعتصامها بروح الانضباط والمحافظة والتجرد، وهى الصفات التى يتمتع بها قاض شغل أرفع المناصب القضائية فى البلاد حيث انتهى رئيسا للمحكمة الدستورية العليا. لذلك بدا محتوى خطاب منصور الوداعى رديفا لحكمة مصرية عرفناها وتعلمناها منذ آلاف السنين. فالخطاب على مستواه المضمونى المعرفى يذكرنا بوصايا لقمان الحكيم أو مزامير داوود، أو كتاب الحكمة المصرى الجبتانا، بالإضافة إلى المرجعية الأم الآتية من فكرة الالتزام الدينى والأخلاقى التى لا يعرفها الإسلام بصيغته المعتدلة فحسب بل تعرفها الأديان السماوية كافة. من هنا كان التذكير بأحد ثوابت الدولة المصرية وهى التعدد والقبول بالآخر، واعتبار التراكم الحضارى جزءا لا يتجزأ من ثقافة الشعب ومن ثم مرجعياته، وهى المرجعية التى حاولت جماعة الإخوان المسلمين التنكر

لمعاييرها ومن ثم التخطيط لاجتثاثها وزرع اللغة الإقصائية المتعالية كبديل لها. وعنها.

أما الرؤية التى يعكسها خطاب منصور فى تصوره للدولة المصرية فتجسدت فى قوله:"مصر.. مُلتقى الأديان السّماويّة.. معبر الأنبياء.. مهد الحضارة.. منبع الفُنون.. وبهاء العمارة.. عبقريّة المكان.. مركز العالم.. وهمزة الوصل بين قارّاته القديمة.. مشعل الحُريّة فى إفريقيا.. بلد النيل.. وأرض الفيرُوز.. وقناة السُّويس.. مصر الأزهر والكنيسة.. مصر العربيّة والإفريقيّة والإسلاميّة والمُتوسطيّة.. دُرّة العالم.. ومحط أنظار الجميع."

وقد كان منصور حريصا على التنبيه هنا على فكرة النسيج الواحد للأمة الموحدة، وكما أشار إلى حكمة مؤسسة الأزهر أشاد بحكمة البابا شنودة الثالث، وكان حرص منصور على بلورة الموقف القبطى الوطنى تعبيرا بليغا عن تجاوز الدولة بل عودتها إلى رشدها تحت مئزر المدنية والعدالة، فقد أنتج النموذج القمعى للدولة الشمولية والدينية، فى معظم نماذجه، حالة من الارتياب تجاه الأقليات، وتم التعامل معهم باعتبارهم طابورا خامسا، جاهزا لاستعداء

واستدعاء الأجنبى فى اللحظة المناسبة. ولا أظن أن الأقلية القبطية فى مصر، قد نجت من هذه الريبة بالحق أحيانا وبالباطل فى معظم الأحايين لاسيما فى ظل حكم الإخوان المسلمين. يزكي ذلك بكل أسف، تصاعد عدد من الأصوات فى الداخل والخارج لدعم فكرة الحماية الدولية فى فترة من الفترات، ومع ذلك فإن السياق العام الذى رسخته الأقلية القبطية طيلة تاريخها، وفى مجمل تكويناتها، لازال لصيقا بمفاهيم وطنية خالصة رفضت كل محاولات التواطؤ مع الأجنبى. ولعل موقف الكنيسة المصرية من التطبيع مع إسرائيل يبدو مثالا ناصعا على ذلك. وقد أشار منصور إلى عشرات الأسماء القبطية صاحبة الدور الوطنى المحفور بحروف من نور فى تاريخ الأمة المصرية.

وقد كان بين أهم ملامح الخطاب الوداعى لمنصور إدراكه تحول الدولة الشمولية في مصر من النموذج الوطنى إلى نموذج الدولة الطفيلية التى تعتمد على إذكاء الصراع العقائدى والطبقى لضمان هيمنتها، مما ساهم فى إنتاج نموذج متطرف على كل الأصعدة، غير أن الدولة التى قادها منصور لم تعمل على إذكاء مثل هذا الصراع لمصلحتها بل

عملت على الاحتواء من أجل تحويل الطاقة الوطنية إلى طاقة إيجابية.

وعلى مدار ماينا هز العام استمرت لغة الرئيس المؤقت عدلي منصور تتشكل حول ثوابت الدولة المصرية المستعادة من بئر ظلامية لم يكن لها قرار، لذلك كانت أولى مهامه ترجمة هذا الاعتقاد بقوة الدولة ووحدتها إلى قواعد يمكن ضبطها، وهو الأمر الذى تجلى فى اختياراته الثاقبة والموضوعية فى تشكيل لجنة الخمسين التى تصدت لوضع أخطر وأفضل دستور عرفته مصر الحديثة. كان حجم التوافق السياسى الذى تشكل حول تلك الوثيقة الرفيعة مدهشا فى عمقه وحجمه، الأمر الذى تبدى فى حجم التصويت غير المسبوق على قبوله، حيث خرج ما يقرب من ٢١ مليون مصرى وبنسبة موافقة تجاوزت الـ ٩٧٪ من أعداد المصوتين. وهاهو عدلي منصور يشرف على الاستحقاق الثانى من خارطة المستقبل التى توافقت عليها قوى ٣٠ / ٦ / ٢٠١٣، حيث كان حرص مؤسسة الرئاسة حاسما فى إعمال أقصى قواعد العدالة فى التعامل مع المرشحين المتنافسين، بحيث تخرج الانتخابات فى النهاية مطابقة لأعلى معايير الشفافية

الدولية، وهو ما أشارت إليه معظم تقارير المراقبين الدوليين والمحليين الذين تجاوز عددهم ١١٥ ألف مراقب بينهم جهات ومنظمات تراقب الانتخابات فى مصر للمرة الأولى.

بهذا العقل وبهذا الضمير عاشت مصر عاما من عمرها تحت سلطة تلتمس الشرعية أينما وجدتها، لذلك لم يكن غريبا أن يدعو المصريون بكافة أطيافهم إلى تكريم الرجل بما يليق بعطائه كرمز من رموز الوطنية التى ستبقى فى ضمير الناس ما بقيت مصر.

فايزة أبو النجا

متسولة أرستقراطية أم ملكة فى الزمن الخطأ؟!

منذ أن وقفت الدكتور فايزة أبو النجا أمام هيئة المحكمة، التى تنظر قضية التمويل الأجنبى للمنظمات الأهلية العاملة فى مصر إبان حكم المجلس الأعلى للقوات المسلحة عقب ثورة يناير وأدلت بشهادتها الخطرة، انتقلت صورتها من بين أيدى الذين حاولوا سحقها تحت سنابك الثورة باعتبارها ليست أكثر من رمز ضمن حقبة فاسدة إلى رمز من رموز الوطنية المصرية فى لحظة اختلط فيها حابل الشرف بنابل الفساد. فمن خلال تلك الشهادة وجهت أبو النجا، التى كانت تشغل موقع وزيرة التعاون الدولى فى آخر حكومات مبارك، العديد من الاتهامات للولايات المتحدة وجمعيات أهلية تتحصل على ذلك التمويل لقاء أنشطة سياسية مناهضة للدولة. وقد عزز من قيمة شهادة الدكتورة أبو النجا أنها مؤمنة بالليبرالية كمنهج تفكير وكمنهج سياسى كما تتمتع بمصداقية عالية بين المصريين، فى الوقت نفسه فإنها تلقى احتراما كبيرا فى أوساط متعددة بالولايات المتحدة نفسها. كان أخطر ما فى

تلك الشهادة أنها اتهمت الأمريكيين دون مواربة بمحاولة احتواء الثورة المصرية عبر تسليمها لعملاء جدد يخدمون المصالح الأمريكية ويعززون مصالح إسرائيل. هذا ربما أعاد فايزة أبو النجا إلى المشهد السياسى كأحد فرسانه الشرفاء وكانت بين أهم وزراء الدكتور كمال الجنزورى حتى رحيله عن الوزارة قبل تسلم محمد مرسى مقاليد السلطة. ومنذ ذلك التاريخ رفضت أبو النجا الاستمرار فى أية مواقع رسمية تحت أى مسمى، فى الوقت نفسه ظل اسمها بين أهم وأبرز المرشحين المحتملين على الدوام لموقع رئيس الوزراء. غير أن الرئيس عبد الفتاح السيسى وأجهزته كان لهما تقديرات مختلفة انتهت إلى اختيار أبى النجا لموقع هو الأخطر فى مؤسسة الرئاسة حيث شغلت موقع"مستشار الأمن القومى" وهو موقع ظل شاغرا منذ تركه الراحل حافظ بدوى فى الحقبة الساداتية.

هذا القرار الذى لاقى استحسانا واسعا من جموع المصريين باستثناء فئات من مناضلى الرصيف، كان يعنى بالضرورة تغيرا فى موقف المؤسسة الرسمية من طبيعة هذا الموقع الذى ارتبط بمفاهيم أمنية ذات طابع عسكرى، ومن ثم

كان مكرسا للعسكريين، وقد كان حلما أن يتحرك هذا المنصب إلى مفهوم أكثر شمولا للأمن القومى بحيث يتحول من منصب عسكرى إلى منصب سياسى، هذا فوق أنه كان حلما أن يكون الموقع من نصيب امرأة أيا كان حجمها. لذلك بدا القرار على الصعيدين السياسى والجنسوى مؤثرا وموضع ترحيب واسع. كثيرون قبل هذا التاريخ كانوا ينظرون إلى السيدة "فايزة أبو النجا" باعتبارها كانت ملكة الزمن الخطأ، ومن ثم كانوا يرون أن زمن دولتها ذهب بلا رجعة. كثيرات كن ملكات فى الزمن الخطأ، ورغم ذلك لن يحتاج المرء لكثير عناء ليتشمم سحر ذكائهن وصلابتهن التى تفارق مظاهرهن اللينة، يحدث ذلك من خلال إشارات دقيقة لا تفطن لها سوى أسماع العارفين بفضل العلم وفضل الأبنية العقلية التى أسست للدولة الحديثة، ولن تخدعنا تلك اللغة الرُواقية التى تبدو على لسان أبى النجا لفرط جلالها، وكأنها خارجة للتو من صومعة راهب يسكن فى البعيد، فدقة وصرامة السياسى معنيان يمثلان جوهرا بالنسبة لها ومن ثم فهما حاضران دائما.

فايزة أبو النجا، التى تبدو، فى رقة أغنية سميّة لازالت كثيرة الصمت، لكنها مع ذلك تبدو صانعة لتاريخ وأحداث

جسام غير أن ذلك يحدث فى ثوب نجمة محتجبة لا تتكلم إلى أحد وترفض الكلام إلى أحد، فطبيعة عملها الجديد شديدة السرية لخطورة ما تحت يدها من تقارير. وربما كانت الوطنية الفائضة فى مواقف أبى النجا وكذلك سلامة ونزاهة ذمتها المالية ونضج مواقفها السياسية وعدم تورطها فى فساد دولة مبارك أسبابا أساسية فى جذب صورتها بعيدا عن تاريخ هذا النظام الذى فقد مشروعيته، بعد أن تخلت دولته عن شروط وجودها بإقصاء السياسة لصالح الفهلوة، والعدالة لصالح سُرّاق المال العام، وبإقصاء تلاميذ الدولة الوطنية لصالح مجموعات من المنتفعين. لقد كان الخرق الذى اتسع فى سفينة مبارك أوسع من قدرة قلة من المخلصين، كأبى النجا، على رتقه، فغرق الجميع فى نهاية الأمر. وأمام هذه الخطوط الأرستقراطية الرقيقة التى تمسد شعر سيدة الأمن القومى وملامحها العذبة، لا يستطيع أحد أن يتجاهل يدها الناعمة التى امتدت لتحمل قصعة مسمومة إلى شعبها إنقاذا لنظام مبارك الذى كان قد شاخ فى مقاعده حتى أفقد الدولة كامل مشروعيتها.

ومع ذلك فإن استمرار فايزة أبو النجا فى موقعها ضمن نظام مبارك كشف عن ثنايا خطابها السياسى الذى لم يكن

مسموحا له بالتطاير من قارورة النظام وزبانيته. لذلك يمكن للمرء أن يجزم بأنها كانت واحدة من ضحايا هذا الإسراف غير العاقل من محتكرى الوطنية فى صيغتها الجديدة. ولعل غبار الثورة المصرية الذى ظل عالقا بطرف شالها الأنيق، لم يكن صائبا تماما عندما أدرجها فى قوائم لعناته، ومع ذلك فقد حاولت - ولازالت- أن تقول كلمتها.

كثيرون كانوا يشعرون بألم بالغ عندما دفع الحزب الوطنى بسيدته الفاضلة فى أسوأ انتخابات برلمانية عرفها التاريخ المصرى الحديث فى عام ٢٠١٠، لكن السيدة، التى كانت، على ما يبدو، تستشعر الألم نفسه، لم تكن سعيدة كل السعادة أن نالت مقعدا برلمانيا، سيكون فيما بعد واحدا من أدوات التنكيل بها. فأبو النجا التى كانت بين أبرز الذين شغلوا موقع "ممثل مصر الدائم لدى الأمم المتحدة" كانت تدرك حجم التحولات فى السياسة العالمية، وما طرأ على مفهوم الدولة فى العالم من تغيرات، لذلك طالما قدمت النصيحة تلو النصيحة لإصلاح ما فسد، غير أن الأمور سارت عكس ما أرادت ريحها. وعندما وضعها مبارك على رأس وزارة التعاون تعامل معها "كمتسولة أرستقراطية"،

وأصبح دورها السياسى يتحصل فى تكليفها، عبر خطابات رسمية، بأن تمد يدها إلى موائد اللئام طالبة ما تبقى من فتات، وهو ما دفعت الدولة المصرية مستقبلها ثمنا له، وكان سؤال مبارك الدائم والبليد لها عقب كل رحلة: "رجعتى ومعاك كام يافايزة..!".

لم يكن هذا هو الدور الأليق للسيدة الأنيقة الذكية، لذلك سرعان ما اقتنصت دورها بنفسها وتوجهت إلى إفريقيا مدركة حجم الكارثة القابعة خلف مدار السرطان، فهى واحدة من أهم العاملين فى إدارة إفريقيا بالخارجية المصرية. ومن واقع رسالتها السياسية، لم يغب عنها أبدا أن الزعماء التاريخيين الذين تعلمت عليهم، كانوا يترجلون فى الأسواق ببزاتهم الشعبية طلبا للانتساب للمقهورين باعتبار أن ذلك يعضد تاريخا صاحبته صعدات عميقة لهويات وقوميات وعسكرتارية حاولت تضميد الكثير من جراح البشرية، رغم انتهاء دولتهم إلى الفشل.

وقد حاولت أبو النجا أن تكون واحدة من زارعى الأمل، لكن الأمل نفسه، كان سببا كافيا لاقتيادها إلى عشرات المحارق الرمزية وغير الرمزية، وبات على أشياعها من أنصار

الدولة الوطنيـة أن يتحـسـسـوا لسـانهم على الدوام قـبل أن ينبسوا، فزلة واحدة كافية لقطعه حتى الحلقوم.

لقد انهارت دولة مبارك التى كانت أبو النجا واحدة من رموزها. نعم.. انهارت دولة فقدت مشروعيتها ولم يكن للثورة رأس يدرك، أو غربال يفرز الحبوب من الحصى، فالثورات عادة بلا رأس ولا غربال، لذلك ظلت اليوتوبيا الثورية، التى لم تخل من دسائس، مدفوعة إلى إحراق الماضى بما فيه وبمن فيه. لم يكن ذلك هو خطأ الثورة المصرية الأول، ولم يكن خطأها الوحيد، كما لم يكن أول خطأ فى تاريخ الثورات، فـ"روبسبير"كان يعدم أسبوعيا عشرات الآلاف باسم الثورة الفرنسية حتى قتله الثوار أنفسهم، عندما أدركوا أن شعار الثورة لا يملك رأسا ولا غربالا.

فهل أخطأت أبو النجا عندما فضحت تمويلات الجمعيات الأهلية التى تعمل تحت العباءة الاستخباراتية، وهل أخطأت عندما رفضت المساعدات المشروطة، أو عندما فضحت المخطط الأورو أمريكى لإدخال مصر فى فوضى تستهدف انهيار الدولة؟!

يكاد المرء يجزم بأن رفض مستشارة الأمن القومى لأى منصب وزارى بعد رحيل الدكتور الجنزوى موقف لا ينطوى

فقط على إدراك لطبيعة زمنها الجديد ، بل يعكس أيضا يقينها بأن أناقة السلعة السياسية الجديدة وعذوبة مظهرها ليستا بديلا عن دموية مخبرها ، فدولة الرفاه التى كان يتحدث عنها الإسلام السياسى، ممثلا فى حكم الإخوان المشئوم، حلت محلها دولة العولمة والشركات عابرة القوميات، وتعززت فيها تحذيرات"صمويل هنتنجتون"و"ريتشارد كابلان"من تحول الصراع الطبقى ببعده الاجتماعى إلى صراع يتمحور حول الدين والهوية. لقد دفعت المستشارة فايزة أبو النجا ثمنا باهظا لكى تنقى ثوبها من الشوك الذى علق به، أما حريرها الناعم والعذب فقد داسته أقدام الأجلاف دون انتباه، غير أن عودة الروح للدولة الوطنية بهبوب ثورة الثلاثين من يونيو أعادت الاعتبار للوطنيين الذين كانوا ضحية الكثير من الضلالات.

سامح شكرى..
كفاءة الدبلوماسى أم تبعية الموظف؟

عادة ما تُذكر مؤسسة الدبلوماسية المصرية، كواحدة من أهم رموز السيادة، مصحوبة بصفات مغلظة من قبيل أنها واحدة من أعرق وأكفأ المؤسسات الدبلوماسية فى الشرق الأوسط، وقد كانت تصنف فى حقبة الستينيات حتى النصف الأول من السبعينيات باعتبارها واحدة من بين المؤسسات الأكفأ فى مجالها على مستوى العالم. والحقيقة أن مثل هذه المبالغات المشمولة بصفات إطلاقية لا تعد التعبير الأكثر موضوعية فى وصف مؤسسة تقنية أيا كانت. فالصحيح أن الدور السياسى الذى تلعبه الخارجية المصرية مرتبط تاريخيا بحيوية المشروع السياسى وتقديراته لتجليات الأمن القومى المصرى وقدرته على التمدد خارج حدوده، وهى حالة لا يمكن فصلها عن الظرف السياسى الذى تعيشه البلاد متصلا ذلك بنظام الحكم، حتى لو بقيت لدى المؤسسة الكثير من الثوابت غير المرتبطة بالنظام الحاكم أو شخص الرئيس أيا كان اسمه.

وقد شهدت الخارجية المصرية تحولات كبيرة عبر ما يقرب من الأربع سنوات هى عمر ثورتى مصر فى الخامس والعشرين من يناير والثلاثين من يونيو. غير أن ثمة خطوطا ظلت غائبة عن تلك السياسة ربما لعدم تشكل نظام سياسى يملك خيارات واضحة على المستويين الداخلى والخارجى، لذلك لم تكن تلك المؤسسة تعبيرا أمثل عن طموحات الثورتين على مدار تلك الفترة، وقد كانت أسوأ تمثيلاتها فى الفترة التى تولاها وزير الخارجية الأسبق محمد كامل عمرو فى نهاية حكم المجلس الأعلى للقوات المسلحة ثم فى ظل حكم جماعة الإخوان المسلمين، وربما كان ذلك تعبيرا عن رغبة الجماعة فى تقويض المؤسسة ودورها ثم تفكيكها وإسناد دورها لرجالات من خارجها، بهدف ترتيب أوضاع الجماعة مع القوى الدولية تعضيدا لعملية سيطرتها الكاملة فى الداخل.

اختلفت الصورة بشكل عميق وواسع مع ثورة الثلاثين من يونيو وتولى السفير نبيل فهمى شأن الوزارة، حيث تبلور الخطاب الوطنى الذى صاغته ثورة يوليو حول خطوط عريضة كان أبرزها استعادة الاستقلال الوطنى الذى بدا قضية

شديدة الوهن بسبب التدخلات الأجنبية فى الشأن المصرى، وبسبب تاريخ طويل من التبعية شهده عهد حسني مبارك.وكان دور نبيل فهمى يمثل ترجمة أمينة لتلك التطلعات لدرجة جعلت خروجه من أول حكومة للرئيس المنتخب عبد الفتاح السيسى مثار تساؤلات واسعة وصلت إلى حد الاستنكار لدى قطاع ليس قليلا من النخبة السياسية، وهو أمر جعل من صعود السفير سامح شكرى لموقع وزير الخارجية أمراً يخضع للعديد من التأويلات ويصاحبه كثير من المخاوف. فثمة تفسيرات تذهب إلى أن الدولة اتجهت إلى الاختيار التقليدى الذى يبعث برسائل طمأنة للولايات المتحدة وأوروبا حول اختيار وزير خارجية يملك علاقات طيبة مع أبرز تلك العواصم حيث عمل سفيرا لمصر فى واشنطن فى الفترة من ٢٠٠٨ حتى ٢٠١٢، كما عمل رئيسا لبعثة مصر بالأمم المتحدة فى الفترة من ٢٠٠٥ حتى ٢٠٠٨، كما عمل سفيرا فى لندن والنمسا، مما يبعث رسائل طمأنة بأن السياسة الخارجية المصرية لن يطرأ عليها تغيرات جذرية وأنها ستدار فى إطار من التعاون بذات الشروط السابقة على الثورتين، غير أن ثمة تقارير أخرى تعتمد على تسريبات تضمنتها

البـرقـيـات الدبلومـاسـيـة الأمـريكيـة فى مـارس من ٢٠١١ الصـادرة عن"بعـثـة الولايات المتـحـدة" لدى الأمم المتـحـدة فى جنيف بسـويسـرا. أشـارت التـسـريبـات نـصـا إلى القلق من صـلابة السـفـيـر المصـرى سـامـح شكرى وهجـومـه المتـواتر خـروجا عن الخط السـيـاسـى للنظام المصـرى. تلك التـحـفظات على شكرى، حسب التـسـريبـات نفسـهـا، كـانت تتـعلق بعـمله كممثل لمصر بمفوضـيـة مجلس حقوق الإنسـان التـابـع للأمم المتـحـدة، حيث أشـارت الوثائق المسـربة إلى أن الوفـد المصـرى واحد من الوفـود الأكثر صـعوبة فـى التـعامل، حيث حشد الدعم للمـواقف التـى لا تدعـمـهـا الولايات المتـحـدة. وتضـرب الوثيـقة مـثـالا على ذلك بالدعـوة التى وجـهـهـا شكرى للمـقـاومـة الفلسطينية بالقتـال ضد الأجانـب المحـتلين لأراضـيـهـا، ووصـف مـا تفـعله بأنـه "دفـاع مـشـروع عن النفس". وكـان الأمـر فى جملته مـصـدرا للانزعـاج الأمريـكى، حـسـب الوثيـقة، حيث رأت أن هذا الموقف كـان يتـزايد فـى اللحظة التـى كـانت تتـحـرك فـيـه الحكومـة المصـرية لدعم جـهـود السـلام في الشـرق الأوسط، وكـان المـوقف فى جـمـلتـه يبـدو مـتـنـاقـضـا أيضـا مع مـوقف الخـارجـيـة المصـرية فى هذا التـوقـيت حـيث أصـدر وزير

الخارجية أحمد أبو الغيط، وعلى النقيض مما يحدث فى جنيف، عدة بيانات تدعو الفصائل الفلسطينية إلى ضبط النفس حتى لا تنهار عملية السلام. كما تشير الوثيقة إلى رفض شكرى إعطاء وزن أكبر للمنظمات غير الحكومية فى العمل، ورفض التصويت فى الجلسات التى كانت مخصصة لمنح تلك المنظمات مساحات أكبر من حرية الحركة، "كما عمل مساعدوه على حشد التأييد للنهج الذى يتبعه الوفد المصرى" حسب وصف الوثيقة.

وبعيدا عن تلك التسريبات والتحليلات فإن النهج الذى ترسخ للخارجية المصرية منذ الثلاثين من يونيو لازال مستمرا حيث نجح الوزير الجديد حتى الآن بحيوية ربما تجاوزت حيوية سلفه الوزير نبيل فهمى. فالأولويات التى تعمل عليها الوزارة لازالت مرتبطة ارتباطا وثيقا بعدة أهداف رئيسية .

أولها: كسر الحصار الدولى الذى كان مشايعا للموقف الدولى من ثورة الثلاثين من يونيو، وهو موقف لازال ينطوى على الكثير من الالتباس رغم ما طرأ عليه من تحسن بعد إنجاز الدستور والانتخابات الرئاسية ثم الاستحقاق البرلمانى الأهم فى تاريخ مصر .

وثانيها: إعادة النظر فى طبيعة العلاقات المصرية مع القوى الحاكمة وعلى رأسها الولايات المتحدة بحيث تنتقل تلك العلاقات من طور التبعية إلى طور الندية، وهو الأمر الذى تبدو تجلياته فى الرفض المصرى المستمر لكل محاولات التدخل فى الشؤون الداخلية .

وثالثها: تعميق صورة التحالف المصرى الخليجى الذى تبلور بعد الثلاثين من يونيو من القوتين التقليديتين فى العالم العربى، مصر والسعودية، ومعهما الكويت والإمارات والبحرين والأردن وبعض الدول التى تعاطفت بشكل إيجابى مع ثورة الثلاثين من يونيو، وتعد الأخطار المحدقة بمنطقة الخليج من إيران وقطر وتركيا واحدة من أولويات هذا التحالف. ورابعها: إحياء ملف العلاقات المصرية الإفريقية ويأتى على رأسها قضية ملف سد النهضة وقضية مياه النيل التى لازالت تمثل ورقة ضغط على مصر معضدة بالعديد من التدخلات الأجنبية. وخامسها: النجاح الكبير الذى تحقق فى الانفتاح على قوى كبرى فى أوروبا وخارجها على غرار العلاقات الاستراتيجية مع كل من الصين وروسيا.

كل هذه الخطوات تتساوق مع الأهداف الخمسة التى تمثل ثوابت السياسة الخارجية المصرية التى تتعلق بدعم السلام

والاستقرار فى المحيط الإقليمى والدولى، حيث الالتزام بسياسة خارجية متزنة ترتبط بالأهداف والمصالح الاستراتيجية فى إطار استقلال القرار المصرى، بمد دعم مبدأ الاحترام المتبادل بين الدول والتمسك بمبادئ القانون الدولى واحترام العهود والمواثيق ودعم دور المنظمات الدولية وتعزيز التضامن بين الدول والدفع نحو إصلاح الأمم المتحدة، الاهتمام بالبعد الاقتصادى للعلاقات الدولية، واعتبار الإطار العربى مجال تحرك رئيسى لسياسة مصر الخارجية، مع استمرار التركيز على النشاط الخارجى المتصل بالأطر الحيوية الأخرى المتمثلة فى الإطارين الإسلامى والإفريقى وارتباطات مصر بدول حوض النيل.

ولا تنفصل بالطبع تلك الأهداف الأساسية للخارجية المصرية عن السجال الداخلى الذى كانت له ظلاله الكئيبة منذ الخامس والعشرين من يناير حيث تجلت تلك التعقيدات فى خضوع المشهد المصرى لنمط من القراءات التلفيقية، لاسيما فيما يتعلق بالصورة التى يتم تصديرها للخارج حيث يتم اختصار الميراث المصرى من المركزية والقوة التقليدية التى تبعثها الجغرافيا فى كون مصر أصبحت بلدا مترهلا وفقد

توزانه فى القلب والأطراف، وأن ثمة قوة مجتمعية حقيقية فى الشارع تدعم الأصولية الإسلامية لاسيما لدى شعب محافظ بطبعه، وهو اعتقاد ثبت خطله وكذبه الصريح.

وقد استطاعت الخارجية المصرية أن تبعث بالعديد من الرسائل الصائبة فى هذا السياق لكن الفضل فى ذلك لم يكن للوزير الجديد سامح شكرى فحسب بل للوزير نبيل فهمى. وفى إطار هذا الضغط الخارجى الذى استهدف تقويض مصر تحولت الملفات الفئوية والعقائدية والاقتصادية والسياسية إلى موضوع للصراع المستمر.وكان من أخطر الملفات التى واجهتها الخارجية المصرية تلك الحالة من الارتياب تجاه الأقليات التى تم تصديرها للخارج، حيث حاول تنظيم الإخوان ولازال يحاول تصدير أزمة داخلية بدأت بحرق ما يربو على الأربع وستين كنيسة ثم التعامل مع الأقباط باعتبارهم طابورا خامسا. فى هذا السياق استطاعت الدولة أن تتجاوز مأزقها وأن تعيد الاعتبار لفكرة التعددية التى تمثل الجزء الحيوى فى النسيج المصرى. وقد رأينا كيف التأمت أكبر مؤسستين دينيتين فى البلاد "الأزهر والكنيسة" حول خطاب الثالث من يوليو وما تلاه من إجراءات إيذانا

بإرسال العديد من الرسائل للغرب حول تجدد حيوية الوحدة الوطنية على أسس جديدة من العدالة المجتمعية، وقد عزز كل ذلك قدرة الخارجية المصرية على صياغة خطاب سياسى استطاع مواجهة عشرات التحديات وهو دور لازال المصريون يعقدون عليه الكثير من الآمال. فقد بدت الأحاديث القليلة التى أدلى بها وزير الخارجية سامح شكرى كاشفة عن قدرات دبلوماسية فريدة فى إدارة الحوار وبلورة الموقف السياسى على المستويين الداخلى والخارجى، فضلا عن الكفاءة البادية فى الإلمام بكافة القضايا المؤثرة وتكوين عقيدة سياسية واضحة ومحددة حيالها، وذلك فى إطار الثوابت التى ارتضتها واختارتها ثورة الثلاثين من يونيو ودفعت بها الدولة الوطنية إلى الأمام، حيث العلاقات المصرية على كافة المستويات تخضع لدرجة مقبولة من التوازن، على أن يكون ثابتها الرئيسى هو الندية ورفض أية تدخلات فى الشؤون الداخلية، فى الوقت نفسه إدارة حوار دبلوماسى رشيد مع القوى المناوئة للثورة والدولة.

ياسر برهامى.. زعيم السلفية الدعوية نصفه مع الدولة الحديثة ونصفه مع حكم السيف!

عندما نتحدث عن الشيخ الطبيب ياسر برهامى فنحن نتحدث عن إشكالية كبيرة فى تكوينات الإسلام السياسى؛ إذ يصنف برهامى على أنه الأب الروحى لحزب النور الذى تشكل عقب أحداث ثورة الخامس والعشرين من يناير، كما أننا نتحدث عن قيادى يشغل موقع نائب الرئيس فى تنظيم مؤثر يسمى تنظيم"الدعوة السلفية" الذى أنشأ الإخوان على غراره عقب الثورة تنظيم"الجبهة السلفية" التى تمخضت بدورها عن هيئة لقيطة تسمى "الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح" التى كان يديرها القيادى الإخوانى خيرت الشاطر من خلف ستار، وكانت تضم فيما تضم ياسر برهامى نفسه وبعض أعضاء الدعوة السلفية وبعض المحسوبين على التيارات السلفية عموما، مثل الشيخ محمد عبد المقصود والشيخ حسين يعقوب والشيخ محمد حسان، وكانت تمثل الظهير الشرعى لتجمع قوى الإسلام السياسى.

وكان التحالف الذى تشكل فى رحم مطامع الإسلاميين فى حكم مصر قد ضم أكثر من فصيل من فصائل الإسلام السياسى، بما فى ذلك تنظيمات العنف التقليدى مثل تنظيم الجماعة الإسلامية وكذلك تنظيم الجهاد ومعظم التنظيمات السلفية بشقيها: السلفية الدعوية والسلفية الجهادية. وكانت أعلى صور التحالف السياسى بين تلك التيارات متجسدة بصورة عميقة بعد صعود الرئيس المعزول محمد مرسى إلى سدة الحكم ممثلا لأعلى حضور ممكن لتلك التيارات فى المشهد السياسى عبر تاريخها على الإطلاق. كان صعود نجم الإخوان بابا لصراع منتظر وطويل شهد تأييدا شبه مطلق من حزب النور، لكنه سرعان ما تراجع خطوات ملموسة عندما بدأت صورة حكم الإخوان لمصر فى التآكل، مما أدى نى النهاية إلى تبلور كتلة شعبية كبيرة تزايدت على امتداد عام ٢٠١٢ ثم بدأت بوادر هذا التآكل فى التبلور فى شهر مارس ٢٠١٣ عندما أطلقت حركة تمرد حملتها بالإعداد لإسقاط الإخوان المسلمين فى الثلاثين من يونيو من العام نفسه، حيث جمعت توقيعات شعبية تجاوزت الاثنين وعشرين مليونا من أصوات المصريين. ويهمنا هنا التوقف أمام

الانتهازية السياسية التى تبدت فى موقف ياسر برهامى وحركة الدعوة السلفية بعامة منذ اللحظات الأولى للثورة، حيث كان أكثر تلك المواقف جلاء فى ذلك الاجتماع السرى الذى عقده برهامى وبعض قيادات جماعته مع المرشح الرئاسى أحمد شفيق قبيل أول انتخابات رئاسية عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير، وبعد حصول محمد مرسى على المقعد الرئاسى سرعان ما انتقل الولاء له ولجماعته، ثم كان انهيار نظام مرسى والإخوان إيذانا بتحول جديد وواسع فى موقف حزب النور؛ إذ سرعان ما أطلق ياسر برهامى ونادر بكار المتحدث الرسمى لحزب النور وكذلك رئيسه يونس مخيون عشرات التصريحات التى تحاول تبرير خطوتهم فى تأييد ماسماه الإخوان:"انقلاب العسكر" على رئيس منتخب، ومن ثم تشكلت ظاهرة اعتصام"رابعة" التى انتهت إلى عنف واسع فى الشارع المصرى لازالت الدولة والمصريون جميعا يدفعون ثمنه حتى الآن. كانت الوثيقة التى نشرها حزب النور والتى صاغها ياسر برهامى نفسه أخطر تلك الأوراق؛ إذ هى تحاول تبرير موقف الحزب الموالى للسلطة الجديدة وفى الوقت نفسه تؤكد أن الحزب قبل بخارطة الطريق حفاظا على تمثيل

الإسلام السياسى فى المشهد القادم، لكنهم فى النهاية ليسوا مع ما يحدث، وأشارت الوثيقة صراحة إلى أن بعض الدعاة السلفيين يطالبون حزب النور بخطاب شرعى كالوفاء ببيعة الإمام، والحرص على تطبيق الشريعة، فى حين أن منصة رابعة كانت تتحدث عن الرئيس المنتخب والمشروع الديمقراطى، وأن القضية ليست عودة الرئيس مرسى مما يعنى أن القضية ليست قضية بيعة ؛ وإنما القضية هى تثبيت التجربة الديمقراطية، وتقول الوثيقة هنا:"القاصى والدانى يعلم أننا ما تواجدنا إلا للحفاظ على الهوية الإسلامية فى الدستور، وبقاء حزب سياسى إسلامى يمكن أن يحافظ على مكاسب التيار الإسلامى ككل".

وقد اجتهد الدكتور ياسر برهامى فى تعضيد الموقف الفقهى لحزب النور من خلال تقعيد الحدث ووضعه داخل إسار النصوص الشرعية حسبما يراها تيار السلفية الدعوية الذين يقبلون بالعمل السياسى، حيث أجاب صراحة فى الوثيقة المنسوبة للحزب على السؤال المهم آنذاك والذى كان شاغلا للتيارات الإسلامية على اختلافها ألا وهو: ما القول فى الإجماع على وجوب إنقاذ الإمام إذا أُسر؟ وهو سؤال نفخت

فيه جماعة الإخوان استنقاذا لرجلها محمد مرسى الذى كانت ولازالت تراه أسيرا لدى قوة معادية. وقد قال الدكتور برهامى فقيه حزب النور نصا: إن هذا الإجماع هو فرع من الإجماع على وجوب السعى فى فك أسر أى مسلم. غير أن موقف الحزب على المستوى الإجرائى كان التخلى عن مرسى وعن الإخوان جملة، حتى عادت التناقضات الفكرية والمذهبية تطفو على السطح، فبدت مساحات الاختلاف فى المرجعيات الفقهية تتزايد حتى تحولت إلى عداء يمارسه الطرفان بعلنية وسفور كانا صادمين بالنسبة للعامة، وقد تعزز هذا الرأى فى الموقف الرسمى والمعلن للحزب فيما عرف بـ"وثيقة برهامى"وكان الموقف فى جملته تأكيدا على رفض حزب النور دفع المشهد المصرى إلى ذات الصورة التى كرسها المشهد السورى، وقد قرأ كثير من المحللين موقف حزب النور باعتباره الأكثر نضجا بين قوى الإسلام السياسى. لكن يظل السؤال الأهم: هل التحول فى الموقف السلفى نحو شرعنة العمل بالسياسة أحدث تغيرا فى الموقف الفقهى أو العقائدى لجماعة السلفيين على نحو عام ولدى الدعوة السلفية على نحو خاص؟. أظن أن الرجوع لمؤلفات ياسر برهامى منَظِّر الحركة

السلفية الدعوية ضرورة للتعرف على التوجهات العميقة لتلك الحركة عبر رأسها المفكر. وقد كان لزاما العودة إلى أدبيات برهامى وبعض مؤلفاته التى وضع بعضها قبل ثورة يناير وبعضها عقب الثورة لكنه فى جميع الأحوال لم يطرأ ما يشير إلى تغير جوهرى فى موقفه، حيث إن مؤلفاته التى كانت تؤسس للتغيير عن طريق العنف لم تتغير، ولم يشر برهامى إلى أن ثمة تحولا فى موقفه من هذا الفهم لقيمة التغيير، ففى كتابه"السلفية ومناهج التغيير"يؤكد معانى الاغتراب داخل المجتمع وهى ذاتها معانى العزلة الشعورية التى تحدث عنها سيد قطب فى كتابه المؤثم"معالم فى الطريق" حيث يقول برهامى:"لا شك فى أن حياة المسلم بإسلامه لا تكون على الوجه الأكمل إلا فى مجتمع مسلم، والحياة بالإسلام فى مجتمع لا يلتزم بالإسلام فى أنظمته ومناهجه قبضٌ على الجمر –وما أقل من يقدر على أن يكون قابضا على الجمر– فإن نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم نجد الانحراف عن دين الله إلى مناهج الباطل والضلال ظاهرا منتشرا فى الأفراد والمجتمعات، مما يستوجب على كل مسلم غيور على دينه يفهمه الفهم الصحيح الشامل ألا يقف موقف المتفرج السلبى

الذى يتحسر على وجود الفساد دون أن يحرك ساكنا لإزالته ولإقامة الخير والمعروف مكانه، وهذا الموقف السلبى من الملتزمين يدل على نقص الإيمان ؛ لأن الجميع يخالط المجتمع ويعيش فيه هو وأهله وأبناؤه، ويتأثر وهو يرى منكراته المختلفة فى التعليم والإعلام والقضاء والتشريع والحكم والحرب والسلام والاقتصاد ووضع المرأة وسائر أنظمة المجتمع". أما فى كتابه"جراح على طريق الدعوة "فيعزز موقف السلفيين من التغيير بالقوة عبر إعادة إنتاج أحاديث نبوية مشكوك فى نسبها ودرجة قبولها لدى جمهرة الفقهاء، ولا يقيم اعتبارا للظرف التاريخى الذى قيلت فيه على فرض صحتها، فيتوقف عند الحديث النبوى القائل: (بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم)، ثم يردف بالقول إن تلك الفتن إذا تكاثرت وامتلأت الأرض منها ظلما وعدوانا وجورا وطغيانا فإن الله سبحانه وتعالى يملؤها بعد ذلك عدلا وإحسانا. ثم ينقل من أحاديث الرسول قوله: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا من عترتى

اسمه كاسمى، واسم أبيه كاسم أبى، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملأت ظلما وجورا). وهو الحديث نفسه الذى تحتمى به فكرة المهدى المنتظر الذى غالبا ما يكون زعيما روحيا من بينهم، ذلك الذى يتحول مع الوقت إلى حاكم تحت ظل الله ومن ثم يكون ممثلا له، ثم يضيف تعريفا إقصائيا للحديث يمثل امتهانا لحقوق الأقليات والمختلفين عقائديا، حيث يقول"إن ظهور هذا الرجل إنما يكون فى أهل الإسلام وفى بلاد الإسلام، ثم بعد ذلك تقع الملاحم الكبرى مع النصارى من الروم فى أرض الشام يقتلون فيها مقتلة عظيمة بعد غدرهم وإتيانهم تحت ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفا، ثم يفتح الله على المسلمين بعد ذلك قسطنطينية ويظهر أيضا أنهم يفتحون رومية وهى عاصمة بلاد النصارى فى الكفر والتثليث والعياذ بالله". هذا جانب من آراء ياسر برهامى التى لم تتغير.

لقد حاولت قدر الإمكان الابتعاد عن تلك الصورة شبه الكاريكاتورية التى ترسخت فى الذهنية العامة للشيخ ياسر برهامى بسبب غرابة الكثير من فتاواه لاسيما تلك المرتبطة بقضايا رأى عام متهم بالتورط فيها سلفيون ينتمون لحزب

النور، وآخرها الفتوى التى أطلقها برهامى حول قضية وقعت فى محافظة الشرقية حول ذلك التاجر الذى ضبطته السلطات يعتدى جنسيا على عشرات النساء ويقوم بتصويرهن، حيث اعتبر برهامى أنه طالما كان يدفع مالا لقاء ما يفعل فى هاتيك النسوة فإنهن يعتبرن من ملك اليمين حسب النصوص الشرعية!! هذا جانب من رؤية مؤسس السلفية الدعوية ياسر برهامى.

جابر عصفور..
التنوير بين التوفيق والتلفيق

لا أظن"كارل بوبر"الفيلسوف النمساوى الأصل وأحد كبار نقاد الفلسفات الشمولية، كان يدرى ما سيؤول إليه أمر"التنوير"على يد ثلة من مفكرى السلطة فى الوطن العربى من بين هؤلاء الذين قضوا أعمارهم فى دعم أنظمة باتريركية وأبوية تقوم شرعيتها على خطايا الدولة القومية تحت شعارات براقة هي من فضلات موائد الحداثة. فـ"بوبر" الذى تحدث عام ١٩٥٨ فى محاضرة له فى مدينة زيورخ عن أنه ربما كان آخر التنويريين فى هذا العالم، كان يجاهر بأنه ضد السفسطة التى تقول إن المثقف لابد أن يكون مداجيا لقانون مطلق للتقدم، لذلك كان يقول إن تاريخ البشرية هو تاريخ من الهزائم والانتصارات والصعود والهبوط مشيرا إلى أن معادلات الوعى لا ترتبط بقوانين لها صرامة ما يقول به التنويريون، فقد تتزامن الثروة مع الفساد كما قد تتزامن الفنون العظيمة مع القمع وفترات الانحطاط. وتبدو تعليلات بوبر هنا مدعاة لإعادة النظر فى الكثير من المقولات الطوباوية

التى لازمت حقبة التنوير العربية التى ربما وجدت نصيرا لها فى بدايات القرن العشرين ونهايات القرن التاسع عشر باعتبارها تمثل فترات التأسيس الأول لمفاهيم عديدة قامت عليها الدولة الحديثة التى لم تكن تحتمل سوى وجه واحد للصراع التاريخى بين مفهومى العقل والنقل، حيث كان انتصار الدولة القومية المصحوب بشعارات الاستقلال الوطنى ليس إلا واحدا من انتصارات الوسطية العربية التى دعت إلى المزيد من الرشد فى القراءة المنهجية للتاريخ ثم سرعان ما تحولت تلك الوسطية إلى خطابات غوغائية لصالح سلطات متعسفة، فقدت مع الوقت مناعتها الشعبية بتآكل مشروعها السياسى والاجتماعى بما يحمله على ظهره من شعارات.

وأظن أن من أكبر الإشكاليات التى واجهت رجال التنوير فى مصر والعالم العربى هو ذلك الخلط بين العديد من المفاهيم التى تأسست عليها الدولة الحديثة لاسيما دولة المركزية الأوروبية. وقد كان أكبر خلط حدث فى هذا السياق هو الجمع، تحت راية واحدة، بين مفهومى العلمانية والليبرالية، الأولى بما تشير إليه من نظام للوعى يفصل فصلا ضروريا بين الإرادة الفردية والإرادة الجمعية، من ثم تتمتع

فيها كيانات الدولة بأعلى درجات القوة حتى تتمكن من تحقيق مفهوم السيادة بعيدا عن كافة النزعات ذات الطبيعة الدينية أو العرقية حتى لو كانت كلفة ذلك انتهاك الرأى العام نفسه. وبهذا المعنى قد تتحقق دولة العلمانية فى ظل أعتى الديكتاتوريات، فلم تكن دولة هتلر والجنرال فيشى وموسولينى إلا دولة خالصة العلمانية. أما الليبرالية فهى الفلسفة التحررية التى أعلت من قيمة الفردانية على كل مستوياتها، وقد كانت تلك الفلسفة تمثل واقعا مدركا لمأزق شبه وجودى عندما تحدثت ليس فقط عن حرية التعبير بل عن حرية التنقل والتملك والعمل والتجارة فى وقت كان الفرد الأوروبى يعانى وطأة الحكم الملكى الإقطاعى الذى ترك خلفه تركة من الدم والعار ربما للبشرية كلها بفعل نمط متواتر من العبودية والقنانة استمر على مدار مئات السنين. يضاف إلى ذلك الخلط الشائه فى العقل العربى بين المفهومين تلك اللجاجات المتداولة منذ أكثر من قرن من الزمان حول محاولات التوفيق بين مفاهيم ثبت تاريخيا أن محاولات التوفيق بينها ليست إلا تلفيقا زاد من مساحات التشوش وسوء الفهم بين الكاتبين والقارئين على السواء. وقد شاهدنا

وسمعنا وقرأنا أحاديث مطولة عن التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، بين العقل والنقل، بين العلم والإيمان، بين الدولة المدنية ودولة الخلافة، وبين التقنين الشرعى والتقنين الوضعى إلى آخر تلك الثنائيات التى تعكس فى جوهرها عدم قدرة مثقف الدولة العربية على حسم خياراته، ومن ثم تعزيز مكانه فى المنطقة الرمادية"الدافئة" التى أرادتها له السلطة السياسية. من هنا لا يمكن للمرء أن يتفهم الخطاب التلفيقى الذى يتساند عليه الدكتور جابر عصفور بعد أن تم استوزاره مرتين أولاهما ضمن حكومة رئيس الوزراء السابق أحمد شفيق آخر رجال دولة مبارك، بينما كانت دماء ثوار يناير لم تزل لينة، وثانيتهما جرت خلال عام ٢٠١٥، وهى التجربة التى انتهت إلى فشل ذريع بعد عديد من المزايدات التى أطلقها عصفور ضد مؤسسة الأزهر فى اللحظة التى استشعر فيها خروجه من الوزارة؛ وذلك بغية أن يتكلل هذا الخروج بمزيد من البطولات الزائفة. ومن المثير للسخرية أن يتابع مثقفو ما بعد الثلاثين من يونيو تلك الأوراق التوفيقية أو "التلفيقية" نفسها التى قدمها عصفور لمبارك بينما يقدمها، بعد أكثر من ثلاث سنوات، للرئاسة الجديدة، ثم نطالعه جالسا أمام

الشاشات بين ثمانين من الدعاة في دار الأوبرا تمثيلا للكيفية التي يمكن أن تدار بها معركة التوحيد بين العقل والنقل وبين الشرعي والوضعي أو قل بين العمامة والقبعة. وهي صورة فضلا عن انهيار مصداقيتها لدى الرأى العام فقد باتت مجالا للتنابذ بين فرق متناحرة ضجت أحاديثها بالتكرارية والملل.

ومن نافلة القول أن فساد النظام السياسي لدولة مبارك وضع على كاهل مثقف الدولة أعباء وخطايا لم تكن خطاياه بالأصل لكنها تمثل الثمن المخزى لدوره التبريرى عندما قرر خوض المعركة نيابة عن هذا النموذج الإقصائى. وقد انتقد طه حسين تلك الصورة التى نالت من المثقف، الأمر الذى دفعه لإعلاء موقفه أيا كانت الأثمان التى يمكن أن يدفعها لقاء ذلك. فقد عارض بشدة انقسام التعليم إلى مدنى ودينى وعارض أن يكون الأزهر قيما على العقل العام، كما عارض مشايخ الأزهر الذين قالوا إن القبلة المطهرة هى محط القومية ورأى أن ثمة قومية أخرى ذات علاقة وثيقة بالجغرافيا السياسية والثقافية، وعلى علماء الأزهر أن يذكروها للناس كما يذكرون القبلة المطهرة، وهو نفسه ما يقول به غالى شكرى فى كتابه "العلمانية الملعونة" حيث يرى ثمة ضرورة لتحرير الدين

من الدولة وتحرير المجتمع من أية سلطة تحكمه باسم الدين وهو ما يعتبره عملا مقدسا وموحدا. هذا ما تقصر عنه وسائل جابر عصفور الذى يعيد إنتاج الدولة الدينية فى وجهها الأكثر وسطية والذى لا يتناقض فى حقيقته مع جوهر الموقف الإقصائى المتشدد بصورة أو بأخرى. فالمؤكد أن الحقيقة التى كان يبحث عنها عصر الأنوار، فضلا عن تناقضها مع هذا العقل التلفيقى المتهافت، كانت تتشكل بمعزل عن كلا الخطابين العُصابيين: خطاب الدولة الشمولية الذى يمارس أقصى درجات العنف تحت شعارات دولة القانون مقابل خطاب الفاشية الدينية الذى يمارس أبشع أشكال الإقصاء تحت راية الحكم الإلهى. والمهتمون بالأمر يعلمون أن خطاب العلمانية وعصر التنوير فى كل بقاع العالم طرأت عليهما الكثير من المتغيرات، وما كان يسمى بسلطة العقل المطلق بات محلا لشكوك كثيرة، بعد أن أصبح العقل النقدى للحداثة عبئا على مستقبل التعددية الثقافية والسياسية ودمج الأقليات، باستثناء تلك التيارات التى تتخذ العنف وسيلة للوصول إلى الحكم وتعزيز الأفكار الإقصائية التى يحاربها خطاب عصر التنوير فى جملته، ومن ثم

لايمكننا قراءة خطاب جابر عصفور سوى باعتباره خطابا يقع فى شراك الماضوية، فضلا عن فقدانه المصداقية التى ارتبطت فى الذهنية العامة بتزكيته للأنظمة الربوية التى ضمنت لنفسها تجارة رابحة مع المستعمر القديم عبر تعزيز صورة الدولة المصرية كتابع وكذراع من أذرع الإمبريالية طيلة أكثر من ثلاثين سنة. ومن نافلة القول أن ما صاحب هذا المشروع من رطان كان من أبرز الأدوات التبريرية لمشروع الدكتاتورية العربية،أحادى الطابع، أحادى الثقافة بطبيعة الحال.

مجدى الجلاد..
الثورة أحيانا يصنعها الحواة!!

يدهشنى، كما يدهش كثيرين غيرى، أمر السيد مجدى الجلاد. فلن يتمكن عتاة الصحفيين من أن يشرحوا لنا كيف اخترق هذا الرجل كل التعاليم التى صاغتها البشرية لوضع تعريف أقل التباسا لمفهوم الكفاءة، فصار، عبر سنوات قلائل، مثلا لصحافة الفهلوة التى أسس لها أساتذة له لم يكونوا أفضل منه بأية حال.

وقد كتبت مقالا عن مظاهر تلك الفهلوة لدى مجدى الجلاد عندما كان رئيسا لتحرير جريدة المصرى اليوم. كان ذلك عقب ثورة يناير بعدة أشهر. ولأن ما توقفت عنده لم يتغير منه شىء، أى شىء، يشمل ذلك وعى الجريدة كما يشمل وعى رئيس تحريرها الذى كان. لذلك أجدنى فى حاجة إلى إعادة نشر المقال مرة ثانية مع إجراء بعض التعديلات التى يقتضيها مرور ما يربو على الخمس سنوات على كتابته. وإذا كانت القضية الأبرز فى المقال تتمثل فى دفاع الجريدة ورئيس تحريرها عن رموز نظام مبارك الذين أدينوا قضائيا

فيما بعد، فما الذى يمكن أن يلمسه القارئ الآن من سلوك جريدة المصرى اليوم ومن سلوك الجلاد نفسه الذى يبدو أنه يخوض حربا بالوكالة نيابة عن رجال المال؟! وحتى لا أسرف على القارئ الكريم فى تقدمة مسهبة أرى أن أعود إلى نص المقال نفسه.

حيث ثمة إشكالية شديدة التناقض نجنى ثمارها حتى الآن. فصحف رجال الأعمال تأسس معظمها قبل ثورة يناير فى إطار مشروع الفوضى الخلاقة المدعوم من الولايات المتحدة وكان رموزها الجدد من حلفاء مبارك ونظامه باعتبارهم وقود التحول نحو توريث السلطة. وكان الجلاد على نحو خاص واحدا من مؤيدى ترشح نجل مبارك للانتخابات الرئاسية التى كان من المزمع إجراؤها فى نهاية عام ٢٠١١، غير أنه مع هبوب ثورة يناير وفشل هذا السيناريو فوجئنا بتحولات مدهشة فى مواقف تلك الجرائد ورؤساء تحريرها. بدأت التحولات بالوقوف الدائم فى المنطقة الرمادية. فهى من ناحية تروج خطابا ينتصر للثورة وثوارها عبر خطابات تحريضية لازالت ماثلة، ومن ناحية أخرى فهى تترقب التحولات السياسية وتوجهاتها بما يخدم مصالح الرأسمالية

الجديدة. حدث هذا منذ انطلاق ثورة يناير، وربما منذ أيامها الأولى، وأذكر أن مجدى الجلاد نشر عددا من المقالات والحوارات كان من أبرزها ذلك الحوار المطول الذى نشر على حلقتين مع رئيس مجلس الشعب الأسبق فتحى سرور، كذلك نشر مقالا غريبا كان يمثل بداية لتلك الحرب التى لازال يخوضها بالوكالة، لوزير التجارة والصناعة "الهارب" رشيد محمد رشيد فى عدد الجريدة الصادر يوم الاثنين ٨-٣-٢٠١١، كان المقال يمثل عريضة دفاع يائسة يطرحها الوزير على الرأى العام لاجتذاب بعض التعاطف، فى وقت كان يعلم فيه القاصى والدانى بإحالة الرجل لمحكمة الجنايات، وإصدار سلطة الإنتربول وقتها مذكرة اعتقال بحقه بناء على طلب السلطات المصرية، بعد أن وجهت له النيابة العامة تهم التربح من أعمال وظيفته والاستيلاء وإهدار المال العام. وهو ما يعنى ، بالتعريف القانونى، أن ثمة جدية تقوم عليها اتهامات الإدعاء العام، وليس ثمة شبهة من أى نوع تحيط مثل هذه القرارات لأن جميع المتهمين بقضايا مثيلة، بمن فيهم السيد رشيد، تمت محاكمتهم أمام قاضيهم الطبيعى، رغم أن الظرف العام كان يمكنه من أن يقذف بهم أمام المحاكم

الاستثنائية، سواء كان ذلك أمام القضاء العسكرى أو أمام محاكم أمن الدولة العليا، جريا على ما كان يفعله النظام البائد الذى يعد رشيد واحدا من رموزه المبرزين. غير أن توجهات ثوار يناير كانت تنحو إلى رفض المحاكم الاستثنائية فامتثل المجلس الأعلى للقوات المسلحة وامتنع عن استخدام الأحكام العرفية حتى عاد الثوار لاتهام المجلس بالتهاون فى محاكمة رموز النظام السابق، بسبب ما رأوه إجراءات غير كافية لوأد بذور الثورة المضادة التى يقودها الطابور الخامس لأجهزة الأمن وفلول الحزب الوطنى وعدد وفير من رجال الأعمال وسرّاق المال العام.

بالطبع، بدا مقال رشيد غريبا وبدا تبنى نشره أكثر غرابة، لاسيما أنه حتى الآن لازال هاربا من العدالة، وقد صدرت ضده عدة أحكام قضائية وصل إجماليها إلى الحبس حوالى ثلاثين عاما. لكن ثمة أسئلة لابد أنها دارت فى خلد السيد مجدى الجلاد الذى تبنى موقف الوزير الهارب، منها مثلا، تأثير مثل هذا الكلام المرسل والملقى على عواهنه على عملية سير العدالة، وتغيير الكثير من الأدلة المطروحة أمام سلطة الاتهام ومحاولة التأثير فى ضميرها. فمن الفرضيات

الأولى للموضوعية فى حالة كهذه أن نترك أمر التداعى والاتهام لصاحب الاختصاص الأصيل وهو القضاء، طالما انتقل النزاع من أدراج التجريس المجتمعى والسياسى إلى إطاره الموضوعى عبر الاحتكام لقواعد العدالة. وجميعنا يعرف أن الكثير من الدوائرالقضائية تقوم، فى معظم قضايا الرأى العام، بحظر النشر ما استمرت المحاكمة أو تقصر ذلك على مرحلة من مراحلها، وهو إجراء لا يأتى اعتباطيا، بل يفرضه القاضى على نفسه وعلى الآخرين، لما يسبغه هذا الإجراء من حماية للمراكز القانونية المختلفة. فهو يمثل، فى مثل هذه القضايا، حماية للمتهم قبل أن يكون حماية للمحكمة وللرأى العام فى الوقت نفسه. كل ذلك يتأتى فى إطار الحرص على تقليص أية عناصر بإمكانها أن تصرف العدالة عن جوهر بحثها، وهو ما يقلل من فرص التأثير على سير العدالة باعتبار القضاة أنفسهم من البشر الخطائين مثلنا تماما، لكن نتائج أخطائهم لن تكون هى نفسها نتائج أخطائنا، ومن ثم فإن المكان الوحيد الذى كان يلائم عرض مرافعة السيد الوزير هو ساحات المحاكم وليس صفحات المصرى اليوم.

ليس هذا هو المنعرج الوحيد الذى يمكننا التوقف على ناصيته، بل ثمة ما يثير العجب على مستوى آخر، ألا وهو مضمون مقال الوزير الهارب .

فبعد أيام قلائل من انطلاق ثورة يناير أدلى الرجل من موطنه الأمريكى آنذاك بعدة تصريحات لصحيفة"الواشنطن بوست"يعبر فيها عن صدمته مما يحدث له، ويعلن رفضه العودة إلى أرض الوطن. وعلى حد قوله: ستعنى العودة بالنسبة له إيداعه السجن بمجرد أن تلامس قدماه أرض مطار القاهرة. فبأى ميزان يمكننا أن نثمن موقف الجريدة حيال وزير يتعمد الهروب من العدالة، ويعلن موقفه بهذا السفور رغم علمه اليقينى بإحالة ملفه إلى محكمة الجنايات، بعد أن امتنع، عبر عدة جلسات عن حضور تحقيقات النائب العام. الأمر يعنى من الناحية القانونية، أنه يتنازل عن حقه فى الدفاع، ومن ثم فقد صدر ضده حكم بإيقاع أقصى العقوبة، لأن الوجه الآخر للتنازل عن الحق فى الدفاع هو الإقرار بالأفعال المنسوبة للمتهم، أى متهم.

أما الأمر الذى كان مثيرا فى مقال الوزير الهارب فهو هذا الدفاع المستبسل والمثير للسخرية عن الثورة المصرية. فهل كان رشيد مع الثورة المصرية؟!!

لقد تحولت مقالة رشيد، بعد فاصل من النفاق الرخيص للثورة، إلى عريضة من الدفا ع اليائس عن شرفه المهنى والأخلاقى. وهى عريضة، كما أسلفنا، تأتى فى غير مكانها. ولا أظن المصريين كان بإمكانهم تصديق الرجل. ومن ثم، لم تنطل عليهم أراجيز الجلاد ، الذى سريعا ما انبرى للدفا ع عن فعلته باعتبارها من أدبيات الاعتراف للآخر بحقه فى الوجود.

وكثيرا ما أثار السيد الجلاد الكثير من الغثاء برُطان نصفه جاهل ونصفه مغرض، حول التعدد والتنوع واحترام الرأى الآخر. وظل هذا البؤس الفكرى والأخلاقى بوابة للتعاطف السرى أحيانا والمعلن فى معظم الأحايين، مع مشروع توريث حكم مصر لجمال مبارك باعتباره"مواطنا مصريا"فما يكفله الدستور لابن الرئيس يكفله لغيره!!"هذه من المقولات الشهيرة لمجدى الجلاد". ولِمَ لا، وقد كان الجلاد هو رئيس التحرير الوحيد، بين عشرات من محررى الصحف"المستقلة"الذى خصه الرئيس المخلوع بحديث صحفى قبيل انتخابات الرئاسة فى عام٢٠٠٥ لم يكن الأمر مصادفة بطبيعة الحال، فقد تابع قراء الجريدة حجم الدعاية، شديدة

التنطع والفجاجة، التى صاحبت هذه الانتخابات والكيفية التى نُشر بها حوار الرئيس المخلوع، حيث كان يتمترس ابنه فى الخلفية بطلعته غير البهية. تلك الطلعة التى لم تنقطع من على صفحات الجريدة حتى قيام ثورة يناير. فلم يكد يمر يوم، تقريبا، إلا وصورة الوريث "المخلوع" تتصدر الغلاف الأول أو الثانى لها. فى المقابل لا يستطيع أحد من المتابعين أن يفسر وقتها ذلك الانقلاب الذى قادته الجريدة ضد أيمن نور وصيف الرئيس المخلوع فى الانتخابات الرئاسية والمحاولات المسرفة والمتعسفة لتشويهه بشكل غير مسبوق، رغم أن الجلاد يعلم علم اليقين حجم الجريمة التى ارتكبها الرئيس المخلوع فى حق نور وحق أسرته، بل فى حق حرية جميع المصريين على السواء.

واستطرادا للأمر لا يمكننا أن ننسى الحوارات متتابعة الحلقات، والمسرفة فى احتفائها بدكاكين الفساد وسراق المال العام، التى أجراها الجلاد مع رموز العهد البائد. وهل يمكننا النظر إلى هذه الحوارات بمعزل عن تلك المقالة المشبوهة للوزير الهارب، لاسيما وأن السيد الجلاد يعلم، علما نافيا لأية جهالة، أن أبرز هذه الرموز تقبع الآن فى قفص الاتهام.

وقد حاولت، كما حاول غيرى، التماس الكثير من الأعذار للجريدة ولرئيس تحريرها آنذاك، باعتبار أن رأس المال الذى يوفره رجال المال والأعمال هو الذى يقيم أَوَدَها، وأَوَدَ رئيس تحريرها. لكن ذلك لا يجب أن يعنى، فى إطار أية أعراف مهنية وأخلاقية، تحول الجريدة - أية جريدة - إلى أداة لحماية مراكز قانونية غير مشروعة، أو أن يكون وجودها رهنا بالدفاع عن قيم تنافى ما ينشده المجتمع الحر بعد ثورتين كبيرتين.

وجميعنا يعلم الظروف التى نشأت فيها جريدة المصرى وبعض الجرائد المستقلة التى صاحبت التوجه الأمريكى فى إدارة بوش الابن بتقديم دعم جزئى للتحول الديمقراطى فى الشرق الأوسط على أن تكون البداية من مصر، وذلك بهدف تجديد النظام السياسى الذى كانت تدرك الولايات المتحدة حجم تيبسه وانسداد شرايينه، ومن ثم كان يتهددها خطر فقدان حليف"أو كنز استراتيجى"هو مبارك، حسب تعبير وزير الدفاع الإسرائيلى السابق بن أليعازر فى وصف دور الرئيس المخلوع.

من ناحية أخرى كان لابد أن يظل التوجه العام لهذه الصحف، يعمل فى إطار التوجه العام للنظام القائم ساعتئذ.

فهى فى وجه منها تقدم خدمة صحفية تبدو مختلفة وأكثر قدرة على الاجتراء والمناورة . وهى قادرة أيضا على تقديم بعض الوجوه من خصوم النظام أو ممن يقدمون أنفسهم على أنهم كذلك، وقادرة فى الوقت نفسه على تقديم مادة خبرية على صفحاتها الأولى لا تستطيع قريناتها القوميات الاجتراء على تقديمها. وفى وجه آخر تظل تلك الجرائد بطرحها، الذى تكلله أعلى درجات الاستئناس، إحدى مبررات وجود النظام وإحدى أدوات إضفاء الكثير من المشروعية على وجوده وعلى ظلاله الثقيلة، طالما كان العقد الضمنى الذى أبرمه مبارك مع الشعب لمدة ثلاثين عاما ظل قائما على الحكمة الشعبية"ودن من طين و ودن من عجين"، فلنا أن نقول ما نريد وللنظام أن يفعل الأمر نفسه، ليس على مستوى القول فحسب بل على مستوى التنكيل وهتك الأعراض والقتل أيضا .

من هنا ربما يمكننا قراءة ما فعله الجلاد بالمصرى اليوم وما سيفعله لاحقا لصالح بقايا النظام البائد، الذين سيستحلبون، قطعا، كافة الكيانات التى ساهموا فى صناعتها، حتى يدمى ضرعها. وأحسبهم لن يتورعوا، عندما تواتيهم الفرصة، عن إطلاق ثورتهم المضادة فى اللحظة المناسبة، لاسيما وأن ذيول الفاسدين والقتلة لازالت تحتفظ بالكثير من أسلحتها.

الباب الثالث :

عن الهُويّات المُجَرَّحة والموت المؤجل

محمود درويش..
هوية مُجرّحة وموت مؤجل

(١)

كان لافتا ذلك الوصف الذى أطلقه ناقد بريطانى يرثى محمود درويش عندما قال "إنه بدأ كلاسيكيا ثم تحول إلى شاعر شعبى"، وظنى أن النظرة الغالبة فى النقد العربى لم تُقارب مثل هذا المعنى، رغم دقته وشدة صوابه. فدرويش تحول من مجرد شاعر فصيح يرتبط، بقوة، بحقبة الحداثة العربية ويقف على رأسها، إلى كونه شاعرا للضمير العام وفى الضمير العام. كان قائدا عندما يتكلم عن الثورة، وعاشقا يهرف كصبى بين الأغرار عندما يتكلم عن العشق، ومطرودا ومطاردا وآثما عندما ينشد العدالة فى فضاء الله الذى يعج بالمظالم. فقد شغلته أشجار الزيتون والأصابع الخشنة التى تبزه كل يوم تحت نيران الاحتلال، بأكثر مما شغلته الأيدى الناعمة للزعماء وأشباه الزعماء، هؤلاء الذين كانوا يطلبون إليه التماس الأعذار وغفران الخيانات ولا

ينسـون، فى غـمـرة ذلك، أن يطلبوا إليـه عـرائض المديـح، تلك الخطيئة التى لم يقترفها قلمه أبدا.

إن قـصـة تحـول مـحـمـود درويش إلى شـاعـر شـعـبى هـى نفسـها قصـة الصـراع التى خاضـها الشعـراء المنذورون لأقدار صـعـبـة عـبـر التـاريخ بين واجبـهم تجاه الفن وواجبـهم تجـاه الإنسـان. وقليلون هـم الشـعـراء الذين استطاعوا أن يقبضـوا على ذلك الخـيط السـحـرى والمسـتحـيل الذى يمكن له أن يفك الشـفـرة بين واجب الفن تجـاه نفسـه وواجبـه تجـاه النـاس. والإجـابة الدقـيقـة على هذا السـؤال تقتضـى منا حصـر الآلاف من الذيـن واظبـوا على حـضـور أمـسـيـات مـحـمـود درويش، والآلاف الذيـن ذهبـوا إلى دور النشـر بغـيـة الحـصـول على توقيعه فوق غلاف ديوان جديد، ومئات الدراهـم والدنانير التى دفعـهـا عشـاق زحفـوا خلف أمـسـيات ذهبت حـصـيلتـهـا إلى مرضـى وفـقـراء ومقـاومين، وأنهـار من دموع المهزومين الذين لازالوا يودعون شـاعـرهـم كـأنه رحل بالأمس، فى كثـافـة تجـدد طرح السـؤال حول وظيفة الشعر مرة أخرى.

سيقـول قـائـل إن مثل تلك الآلاف المؤلفة خرجت أيضا لغير الشـعـراء. سـيقـولون إن ذلك حـدث للمفـقين وكذبة، يـعنون أن

خروج الآلاف ليس معيارا لجودة الشعر، وهذا صحيح، لكن الصحيح أيضا أن هذه الجموع صدقت شاعرها حتى النهاية ولازالت تصدقه، لذلك فهى تستحضره. تستحضره على فراش الحب، فى الزنابق وثغور البنات، فى العضد المقاوم وفى أصوات أطفال منذورين لميتات تسكن بين اللحم والعظم، كل ذلك فى مواجهة شعريات ناقدة وناقمة، هى فى أحسن أحوالها، ليست أكثر من تمثيل لعزلة الشعر وتعاليه.

(٢)

كان درويش صناعة المستقبل بامتياز. كان وعيه بتحديث نصه لا يفتر، بل كان يتعامل مع كل نص كأنه النص الأول، وقيمته الحقيقية - فى رأيى - تكمن فى قدرته على الإبقاء على شعبية نصه، دون أن يكون ذلك على نفقة تجاوزه النوعى، لذلك فهو نص زمنى بشعبيته، ونص لا زمنى بحدسه المستقبلى المتجدد دائما.

وعلينا أن نتذكر جيدا أن درويش لم يكن يملك تلك الجرأة التى يمكنه من خلالها إصدار الأحكام النهائية على فساد ذوق العامة، فالرجل لم يكن يبحث عن وصاية يدعى خصومه امتلاكها، عبر "نضالهم" من أجل تحرير القبيلة الناطقة

بالعربية!! ولا أظن شاعرا ـ أى شاعر ـ يمكنه أن يوفر فى عالمنا صك الحرية حتى لنفسه، لماذا إذن نطالب درويش بما نعتق أنفسنا من أسره.

إن الحرية التى كان ينشدها درويش ليست تلك التى اختلسها مثقفون من فضلات موائد الحداثة، فقد كان الرجل يدرك أن عصر الأنوار دشن طريق الموت هنا فى الوقت الذى دشن فيه طريق الحرية هناك.ومع ذلك ظل حديث درويش عن الهوية المجرحة مثارا للتندر لدى قطاع لا بأس به ممن يرتدون قبعة المحتل بينما يتحدثون بلسان عربى مبين. إن الهوية التى أرقت درويش هى تلك الهوية التى كان يجب أن تتشكل بمحاذاة المركزية المنتجة للمعرفة والمال والسلاح، مع الوضع فى الاعتبار أن الهوية التى يسعى الفن إلى إنجازها، تختلف عن تلك الهوية التى يسعى السياسى إلى تأليف أو تلفيق أواصرها. ولأن درويش لم يكن شاعرا متهتكا فقد ظل يؤمن بخصوصية جماعته الإنسانية. واللغة لدى درويش هى المادة الغفل لمفهوم الخصوصية، فالانتماء الذى يبدأ باللغة يفرض مكونات موضوعية كما يفرض نسقا من القيم الأخلاقية التى لا تقيد الفنان الحقيقى، بقدر ما تدفعه إلى

تجديد تلك الأواصر والأنساق داخل الجماعة البشرية، وعبر تلك اللغة تكتشف الجماعة شاعرها ومفكرها.

(٣)

كانت أبرز الاتهامات الموجهة لشعر المقاومة الذى يتربع درويش على رأس كاتبيه تتمثل فيما كتبه كل من أدونيس وغالى شكرى، حيث كان الاتهام بالغنائية والمحافظة والاستئناس بالقيم الماضوية مثل الدين والقومية. ورغم أن درويش لم يكن جزءا من هذا التوصيف الدقيق لمعضلة الحداثة الشعرية العربية إلا أن موقفه الملتزم، كسائر شعراء عصره، دفعه للتعبير عن احتقاره لمثل هذه الاتهامات فى أكثر من موضع، ولم يكن غريبا أن يعبر فيما بعد عن مخاوفه تجاه الشعر الجديد، حيث كتب ذات مرة ملخصا تلك المخاوف بقوله: "إن ما يرهقنا فى هذه الفوضى هو أن التجديد والحداثة يراد لهما أن يتحولا إلى مرادفين للعدمية، وللثورة المضادة أحيانا، حيث لا يصبح هنالك معنى للأشياء واللغة والتضحية، والعمل، ولا معنى للمعنى فى الشعر، معنى الشعر هو اللا معنى، لأن المعانى - كما تقول الحداثة - مفاهيم قديمة بالية، كالفصاحة ذاتها التى تم استبدالها بالركاكة". ورغم

هذا الموقف الصلد لم يدع محـمـود درويش أبوة الفن ولا أمومته، لأنه كان يرى أن كليهما ـ الأبوة والأمومة ـ استعارة فى غير موضع شاهت بها جميع التشبيهات. من هنا سيظل درويش"بألف لام التعريف"الشاعر الفرد الذى اختصر ذاتيات كميّة فى صوت هادر هو صوت الناس، غير آبهٍ بالحداثة ووكلائها فى الشرق. لقد رحل الرجل بعد موت مؤجل وترك شعره يسير بيننا دون حراسة، بينما يسهر آخرون حول شعرهم مدججين بالسلاح ومع ذلك لا ينتبه لوجودهم أحد.

عفيفى مطر.. ألمٌ ذائع الصيت

ذات مرة، ربما قبل قرنين من الزمان، طُلب إلى جوته أن يقدم تعريفا جازما ومختصرا للمجتمع الراقى، فقال على الفور: "إنه ذلك المجتمع الذى يستحيل على الشعر أن يعيش فيه". فى الحقيقة لم يكن جوته يقصد أن يقلل من شأن البنايات الضخمة التى تكرس الحس الإمبراطورى الساحق، ولا العلاقات الشائنة التى تكفلت بتعميق جلافتها مفاهيم المنفعة الحدية، فى أقصى صورها حيوانية. كل ما فعله جوته أنه بدلا من أن يختار المكان المناسب لإقامة الشعر، اختار المكان الذى نجح فى جعل الشعر مطاردا، وجعل الشاعر مطرودا.

الدلالة الأولى لهذا الحمق الذى يثير الحسد، ربما تجسدت فى مفهوم جوته للشعر باعتباره كائنا شيطانيا يتخلق بعيدا عن نظر الآلهة، أقصد الآلهة الجديدة التى تم تصنيعها فى حاضنات البراجماتية وإمبراطوريتها مترامية الأطراف. ربما

لذلك اختار جوته أن يتحدث إلى الماضى كشقى خرج لتوه من أسطورة مضللة، تبحث سحر الخليقة وسطوع حقيقتها.

وربما، بالحمق نفسه، اختار محمد عفيفى مطر إقامته حول البركان. هو الآخر تحدث بشموخ اليائسين إلى رفيقه أنبادوقليس، الذى تقول كتب التاريخ إنه لم يُر إلا مقطبا، وإنه ما ترك نعليه حول البركان إلا سخرية نهائية من هؤلاء الحمقى المتشبثين بتعميق مذلتهم.

كان مطر على الدرجة نفسها من الرعونة والاحتجاجية على فكرة الوجود ذاتها، فاقترف أولى خطيئاته بالإقامة حول صخرة تتناسل كل يوم هى صخرة المعرفة، من هنا توقدت جمرة القلق المنضد بالرفض، وعدم الامتثال، والبحث المؤرق عن الاكتمال. فمثل شعره لا يتعامل مع المعطيات البديهية باعتبارها عناصر الوجود النهائية، بل هو شعر يعتقد أن معرفته بالوجود ستظل دائما فى طور الاكتمال، وهو افتراض نقص دائم بالمعرفة، ربما هو الدافع الأعظم وراء الخلخلة وعدم الاستقرار والانخلاع الدائم مما حذر منه النفرى ونقله إلينا مطر:"العلم المستقر هو الجهل المستقر". لقد اختار مطر مملكته، ولم يختر الطبقة الراقية التى تحدث عنها جوته قبله،

ونعتها بودلير لاحقا بأنها تقدس الجهل والغائط في آن. ولم يكن ذلك المهد سوى مصادفة صعبة يمتد عمرها بعمر الزمان.

في السنوات الأولى كانت مملكة مطر الخرافية من لحم ودم، كان أبطالها يتشكلون في حمأة الطين الذي ينتمي إليه، ثم صارت المملكة أكثر إدهاشا وأكثر مروقا عندما أدرك أن بوهيميا صلفا وعنيدا لا بد من أن يتصدى لقيادتها، فمدينته لا تنطوي على محفات سماوية ولا سُرُر مرفوعة، بل كانت استغراقا خرافيا بدا في مكابداته الكيخوتية التي لم تنقض حتى بانقضاء الروح.

هكذا- رغم ضبابية الرؤية - تشكلت مملكة محمد عفيفي مطر، صارت قادرة على صك شفراتها. جنودها من لغة، طرقاتها من أثير، مصابيحها مشتعلة بنار الشعر، ونساؤها يلبسن الأخضر دائما. فقد كان انحياز مطر لمملكته يمثل موقفا ناقدا للكثير من الزيف، لا سيما في مواجهة المدينة الحديثة ومجتمعها الراقي، ونجاحهما في أن يجعلا من الشاعر ثورا "هوميريا"، وأن يدفعاه أبدا إلى البحث عن"إيثاكا" المستحيلة.



كـان مطر سـعـيـدا إلى حـد بعـيـد عندمـا ترجم لليـونانى "أوديسـيوس إيليـتس" - قـرين صـلفـه - مـخـتـارات صدرت آنذاك تحت عنوان "الشمس المهيمنة". إيليتس، شاعر نوبل، كان مولعا بخطاب هوميرى ينحو إلى الخلاص، وكان فـعل المحاكـاة لديه يعنى إعـادة إنتـاج للسـرديات التـاريـخيـة الكبرى، فى المقابل كان يرى مواطنه كفافى واحدا من الذين يرسـخـون للتـهكم والسـخـرية والتـفسـخ والانتـهـازية بعـاطفـة متهتكة ومتميعة، لذلك كان إيليتس يحتقر تلك الفردية التى عبرت عنها شعرية كفافى، وكان ذلك بالنسبة إلى مطر يمثل اللافتة الأشد دلالة على العقل المركب فى مستوياته المتعددة. فمطر الذى أتى من محنة الفقر إلى محنة الفلسفة، يعبر بدقة عن هذه العلاقة واصفا إياها بـ"القرابة الروحية العميقة التى أنقذت إنسانيته ووهبته الإحساس المتوقد بكرامة الانتماء". فهذا الفتى الذى نذر نفسه للشعر ولشغفه الحماسى المهيمن بالفلسفة "يجتزئ من الدنيا بلقمة خشنة فقيرة وملبس بلا وسامة، وإيمان لا يتزعزع بالميراث السقراطى وهدير الأعماق بالشعر".

لقد انحاز عفيفى مطر لوعى شديد الجذرية، معتبرا أن تضـخم الحـاسـة السـردية التى تمسك بها كـفـافى وأقـرانه

أضعف لدينا الوعى التاريخى وعمق طابع المنفعة، وكان ذلك يعنى بطريقة أخرى الإعلاء من شأن اللغة التحليلية الوظيفية فى مقابل احتقار الطاقات التأويلية للغة/ أية لغة. ورغم أن لغة مطر كانت تقف فى بؤرة التعيين فإنها لا تعبر فقط عن كونها تاجا من الالتباسات وميراثا لغموض الأشياء ذاتها، بل تبدو أكثر صمودا وحضورا وبهاء كلما وجدت نفسها فى معترك الرؤية وجوهر الزمن الخاص، حيث يكتشف الشاعر نفسه فى علاقة الكلمات بالأشياء، والأشياء بالكلمات.

إن عفيفى مطر المشغول بتسمية أشيائه يبدو أكثر تلبسا بمستويات من اللغة التأويلية، هذه اللغة الأكثر نهوضا بعمليات الاستبطان والتى تبدو أحيانا وكأنها خروقات تقتفى أثر نفسها فحسب، وهو أمر على تأثيره الواسع فى الشعريات المجاورة، لم يجد القراءة اللائقة، لأن اندفاعات مطر فى حمى ابتكار عالمه وتسمية أشيائه وابتكار أجنحة لمعانيه لا تعبر فقط عن الخروج المطلق على السائد والمستقر، بل تعبر أيضا عن الرغبة المقيمة فى التأكيد على الشاعر/ الخالق، الذى يمكننا فقط أن نفرق بينه وبين الآخرين ونحن

نقول إن الشعر هو ذاكرة، ذاكرة للكثافة المفقودة كما يدلنا "إيف بنفوا".

وعلى الرغم من أن مطر لم يكن مشغولا بتقديم مسوغات لهذا الموقف الجمالى والفلسفى شديد التركيبية، فإنه قضى جُل عمره يتلقي أسئلة مثيرة للسخرية من مدرّسى الشعر، هؤلاء الذين يعتبرون أن مهمتهم الوحيدة هى جعل الشعر مفهوما.

●●●

لم يكن مطر جمهوريا ولا وغدا. فلم يكره سلالته التى تخلّقت وتحلّقت حول قصعة الملك، لكنه وجد الطعان والطاعنين من خلف حتى قبل أن يجف دمه. لذلك كان يرى مملكته، عن قرب، مجمرة أبدية جديرة بالإقامة، كما هى جديرة بالرحيل. هذه النظرة القلقة كانت هى ذاتها التى تؤلف المستقبل بين رغائب الطفولة المكبوتة وتحرقات الرجولة الصلفة. كان الماضى يبدو فى مملكة مطر فرصة ضائعة خالية من المسرة، لكنها لا تمثل عدوا يستوجب المجابهة، كانت تبدو أحيانا كأغنية رومانتيكية مبالغ فيها.

لقد علمنا عفيفى مطر معنى أن يكون الشاعر مغسولا بشرف أحباره. علمنى أنا بشكل خاص، لأننى كنت مريضه

لسنين ولاأزال مريضه لسنين لا أعرف عددها، قال لى:"حياتى مغسولة بعرقى، ولقمتى من عصارة كدحى وكريم استحقاقى"، فكن هذا الحلم التعس الذى أبدعته النبالة ولم يبدده الجوع.

إن من يعترفون لعفيفى مطر ليسوا كمن يعترفون عليه، فبين الشاعر والشاعر دم التلاقح، وبين الشاعر ومن يخفرونه إلى القبر ثأر الجهل ونذالة المقصد. ومن يعتقدون بنهاية القصيدة لهم كل الحق، لأنهم يرونها رحلة روتينية إلى بائعة الخبز والدخان، لكنها لدى الشاعر تظل مقدمة لقيامة أخرى سوف تأتى. وتحت سماء جديدة ستكون الغرفة التى استأجرها الشعر قصرا تتلألأ على سريره الخواطر والعاشقات، وسوف يجسد شخص بوهيمى دورا متقنا لشاعر يتألم سوف يكون عفيفى مطر. هو بالضبط كما رأيناه وكما عرفناه. ليس بطلا نيتشويا، ليس واحدا من صناع دائرة الموت، ولا هو صريع السقوط العنصرى، لكنه فى المقابل ضد الفوقية، ضد سيادة الجنس، وضد الصورة التى رسخها سجع الكهان للبطل العربى"بغموضها المبهم وطقوسها الكهنوتية".

لقد ظل مطر يقاوم نموذجا معرفيا شديد القسوة فى عنصريته، واعتبر أن ما يُشيعه هذا النموذج يمثل نمط انتصار للزيف والتلفيقية. هذا الخطاب- لم يكن فى رأى مطر- إلا تبريرا للمشروع الاستعمارى فى مجمله وتبريرا لنسقه الشامل فى أفكار يصفها بأنها تنازع البقاء. ربما هذا ما يفسر لنا كيف كان مطر ضد النمذجة بكل ما تعنيه، كونها تعبيرا قامعا، لذلك كان دائم الاستنكار لما يسميه"صفاقة الزهو بالانحلال من كل ما يربط الشاعر والقصيدة بهول الأحداث وعواصف الدم والنار ومشاهد البؤس اليومى وانفساح الحياة بالطبيعة وجذور الانتماءات ومكابدة الإنسان". هكذا يقول مطر، وهكذا تمضى قراباته فى عالم غشوم مفكك تحكمه العشائرية،"بمناعتها الأسطورية ضد التغيير والتجدد".



كان لزاما على محمد عفيفى مطر أن يموت؛ حتى يعتذر له شاعر كبير ويضفى على فقره قيمة مضافة، ثم يؤكد أنه مات عفيف اليد واللسان، وأن يصفه آخر بأنه كان يداجى أنظمة فاشية ويروج لبضاعتها، وما تبقّى من الاتهام يعلمه القارئ

اللبيب وغير اللبيب، وأن يقزمه ثالث لحساب الإمبراطورية الأدونيسية، وأن يقف تلامذته أمام صورته مسترشدين بندبة كبيرة بعض الشيء، تعلو أرنبة أنفه. بعضهم سيكتب فيها أشعارا تعيد الاعتبار لذلك الأنف الذى لم ينكسر سموقه بضربة من كعب مسدس فى قلب دياجير السلطة، والبعض الآخر لن يرى فيها إلا طلبا مستعجلا لبطولة زائفة وحمقاء من شاعر عاش ومات من أجل تربية حماقاته.

كان لزاما على مطر أن يموت حتى نلتمس الرحمة له ولحماقاته معه، وأن نلتمسها كذلك لشعراء صغار أكلوا لحم موتاهم فاستعذبوه، لكن هذه اللجاجات لن تنسينا أن عفيفى مطر يسكن نسغ قصائدهم، يسكن بين اللحم والعظم.

ربيب السلطان وشاعر الطلاوة والحداثة
شوقي في ذكرى دولة الخلافة

ليس دفاعا عن رفعة لقب"أمير الشعراء"ولا هجوما على تلك المسابقة الخليجية المليونية التى تسعى إلى تدشين أمير للشعر العربى فى لحظة مغايرة بالتأكيد لتلك اللحظة التى اجتمعت فيها وفود الشرق لمبايعة "أحمد شوقى" أميرا، بحافز من الدفاع والتأصيل للإمبراطورية الصاعدة على مرجعية دينية. لذلك ، سنترك المسابقة الخليجية لشأنها فهى ليست موضوعا لهذه الكتابة، كما أنها ليست موضوعا يتميز بالفرادة؛ عربيا. وحسبها أنها تعيد الشعر العربى إلى قرون الانحطاط، تحت راية الدفاع عنه. أما إمارة الشعر التى تنصرف إليها هذه الكتابة فتلك التى حيّاها كبار الشعراء العرب بداية من شاعر الرومانسية الفريد بشارة الخورى إلى شاعر المعاظلة الإحيائى حافظ إبراهيم، لكنها فى كل الأحوال، ليست تلك الإمارة المستعادة على طاولة الحنين بغية ترك دمعتين حارتين على قبرها. فإمارة الشعر، آنذاك، كانت جزءا من الوعى السياسى العام الذى كان يبحث عن أبطال

كانوا مشغولين بإعادة الحياة لذراع السلطنة العثمانية التى بترها محمد على ثم أجهز عليها الاحتلال الإنجليزى فى بداية حقبته الكولونيالية.

لذلك لم يكن غريبا أن تتهيب المناسبة ذلك الملك العضود القادم، الذى يتنازعه مركزان الأول فى القاهرة والثانى فى الحجاز، وكانت تلك الإمارة الرقيقة فى رمزيتها "إمارة الشعر" فألا يعلقه الحكام تميمة كالأحجبة على صدورهم انتظارا للنبوءة القادمة.

كان أمير القوافى أحمد شوقى قد نجح فى إحياء تربة يبست، ولأنه امتلك موهبة فذة عرفت طريقها بالوعى المبكر إلى التحديث، فقد استطاع أن يعيد الاعتبار لدولة الشعر بعد طول خسوف.

ورغم الهشاشة والضعف الباديين على إمارة الشعر فى مواجهة إمارة المسلمين من أقصى المشارق إلى مغاربها، فإن السياسة بوضعيتها ومفارقتها للحلم، وقسوة وضوحها ومباشرتها، استطاعت استخدام ذلك الكائن الغض الضعيف، كما لو كان جزءا من آلية التحديث العسكرى التى ستساهم فى تعضيد أركان الإمبراطورية القادمة، وهو أمر ساعد كثيرا

ليس على تعضيد الإمبراطورية ولكن على تعضيد سوء الفهم المتبادل تاريخيا بين رغبة الحكام فى استخدام القيم الرفيعة فى تبرير أبشع الجرائم السياسية وأكثرها انحطاطا مقابل رغبة الشعراء في التحلل من ذلك الرباط غير المقدس بين شرف القيمة الإنسانية ووضاعة الذهب الذى يلمع تحت أقدام الخليفة.

وفى الثقافة العربية لا يكاد المرء يعرف الفرق بين بناء إمبراطورية عضود تقوم أركانها على القتل والتشريد وغياب العدالة وتجذير الفكر التوسعى على نفقة الشعور الجمعى المقهور، وبين إمبراطورية الشعر التى يقوم ملكها "العضود" على تلك اللغة المجازية التى يراها الساسة ترفا يليق بالأغبياء والمجانين.

ومع ذلك تبدو تلك المسافة أكثر قربا من أصبعى السبابة والوسطى فى ثقافتنا رغم تلك الشُقة البادية فى تلك الأوصاف وإن بدت قاسية إلى حد بعيد، فالمتنبى الذى كان ينكر أنه ابن لسقّاء فقير، اضطر - مع أناقة موهبته - إلى استخدام الكثير من الأراجيح لكى ينال رغدا مبكرا، وفى ظنى أن اعتداده المفرط والمستمر بنفسه لم يكن إلا دفاعا عن

تلك القيمة الإنسانية الرفيعة التى تقلق نومتها تلك الأكياس الذهبية اللامعة. وفى النهاية لم يسلم من سداد ثمن باهظ لاختلافه مع الساسة وصبيانهم، فمارسوا ضده أبشع صنوف المهانات.

لم يكن شوقى بعيدا عن ذلك، لقد لعب دورا سياسيا فى تعضيد إمبراطورية بائدة، وقد كان دوره كشاعر بلاط تعظيما لتلك القيمة السلبية التى دفعته لسب ثورة عرابى ووصفها بالصغار ولم يغفر له أن اعتذر لاحقا عن ذلك، ثم تبدى ذلك بشكل أكبر فى دفاعه عن السلطان حسين كامل الذى أتى به الإنجليز خلفا للخديوى عباس حلمى الثانى الذى كان يرفض الاحتلال. وبطبيعة الحال ليس بمكنة الشعر، فى مثل هذا العصف، أن يبقى ثوبه ناصع البياض، فلم يشفع لشوقى أنه ابن السراى وأنه تربى فى بيت إسماعيل، حيث تم نفيه إلى إسبانيا عام ١٩١٥ ولم يعد منها سوى عام ١٩٢٠ بعد ثورة ١٩١٩، ولم يكن شوقى ينسى أبدا أن أستاذه ورائده فى مدرسة الإحياء محمود سامى البارودى قد ألقاه الاحتلال فى جزيرة سرنديب حتى كُف بصره وعاد بكومة أخرى من الأمراض التى فتكت به، غير أن المنفى أعاد لشوقى جوهرة

الشعر فى أكثر حللها زهوا ونقاء، فكتب أعظم قصائده هناك على شواطئ طليطلة، وأقام معارضاته الكبرى ثم عاد مكللا بأصوات الآلاف من مستقبليه كبطل شعبى لم يكن يقل أهمية عن زعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول.

ولم تكن سنوات شوقى '١٨٦٨ ـ ١٩٣٢' الأربع والستين سوى رحلة وعى مبكر فى قصر الخديوى إسماعيل، ثم الدراسة فى مصر وفرنسا ولم يكن منجزه الشعرى هو المفارق الوحيد لانحطاط الشعر منذ العصر المملوكى، بل كتب سبع مسرحيات شعرية وستة كتب نثرية وإن كان معظمها من النثر المسجوع على غرار النثر العربى القديم، وكانت قناعات شوقى بشعرية أبناء سلالته عميقة لدرجة لم يفرق فيها بين الحكمة فى الشعر على مر عصوره، ورغم اختلاف وعيه بذلك الغرض، كما يتضح فى شعره، كان يقول:"لا يزال الشعر عاطلا حتى تزينه الحكمة، ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر".

ورغم تلك المواقف التى وصمت شعر شوقى كما وصمت جانبا كبيرا من الشعر العربى بدرجة تجعله فى حاجة إلى الكثير من التنقيح، فإن دعوة شوقى لم تنقطع بمهاجمة

الاحتلال وإقرار الدستور وإقامة دولة العدل، وقد أثقلت الكثير من الوطنيات ذلك الشعر الصارخ بمباشرته وعنفوانه إلى حدود لم يعرفها الشعر العربى، وأتصور أن ذلك كله يرجع إلى غياب مفهوم الدولة الحديثة فى صورتها المركزية مع سيادة حدود الإمبراطورية التوسعية غير المؤمنة بالجغرافيا، ومع ذلك فقد قابلت شعرية شوقى رفضا تدميريا من العقاد والمازنى، وقد وثقا معركتهما فى الكتاب الشهير "الديوان" وفى النهاية اعترف المازنى بأنه ليس شاعرا، واستمر العقاد فى مراكمة الكثير من الشعر المتعسف الذى لم تقيض له حياة بعد رحيله.

ولم تكن المعركة ضد شوقى، حتى فى وجهها الناضج لدى شوقى ضيف ومحمد مندور، سوى ذلك الوجه الخشن الذى جاوز أفق الرغبة فى التحديث إلى أفق يتجاهل قيمة النوع مثلما فعل العقاد والمازنى، وكذلك التجاهل التام للقيمة التحديثية لشعر شوقى من حيث كونه نقل الشعر من رطان القواميس إلى قشابة الصورة الشعرية التى تنتمى إلى زمنها، بأكثر من انتمائها إلى ماضيها المعرفى، التراثى تحديدا.

إن القيمة التى أرساها شاعر فى حجم شوقى والتى بررت، قبل أكثر من ثمانين عاما، منحه راية إمارة الشعر،

ليست هى نفسها القيمة التى يمكنها أن تثير الكثير من الجلبة والضحك إذا ما تصورنا أن ثمة أناسا، مغيبون على الأرجح، يحاولون شراء اللقب بملايين الدراهم.

فهل نخطئ عندما نتساءل عن الدوافع الحقيقة لإطلاق مسابقة خليجية تنفق الملايين لتصنع أمراء الشعر الجدد؟! وهل يطمح هؤلاء لإقامة الشعائر الرمزية لإمبراطورية جديدة لم تتحدد جغرافيتها بعد؟! أم نحسن النية فنقول إنه الدعم الرمزى لإبقاء التخلف على حاله مرافقا للإمبراطورية الجديدة المدعومة من الاستعمار الجديد؟!

حذاء "على فرزات"

لا أعرف "على فرزات"، لكننى أعرف يده التى حطمتها هراوات النظام السورى، بالضبط كما أعرف عينيه الملونتين الرائقتين اللتين حاول الشبيحة فقأهما. وأتصور كذلك أننى أملك شجاعة، لست متأكدا من قدرتها على البقاء، لكنها ربما منحتنى القدرة على أن أقول له: ليتها كانت يدى.

لا أعرفه، لكننى أعرف رسومه. عايشتها، ضحكت منها، تألمت من أجل المسحوقين فى حُلكتها، وبصقت على الأنبياء الكذبة من خطبائنا الذين أطلوا منها، عندما كنت أراهم فى عشرات الرسوم وهم يعتلون المنصات بينما تتدلى خطبهم فى بكرات ورقية طويلة تثير السخرية والاشمئزاز فى آن، كانت النوافذ آنذاك تتسع لعشرات المجلات التى كان يطل منها "فرزات" على محبيه وعشاق فنه.

كان مثقف الدولة القومية، ساعتئذ، يأمل فى تزاوج بين الثقافة والسلطة، لذلك سرعان ما كانت عشرات المنابر تقتفى أثر "فرزات" لكنها، وبنفس الكفاءة، سرعان ما كانت تحيك المؤامرات لطرده . لذلك بدت رحلة الفنان طريقا للبحث

عن"إيثاكا"المستحيلة، تلك التى تبدت دائما طريقا لسؤال كل فن، بل طريقا لسؤال كل فنان.

وتحت السقف العالم ثالثى، العربى منه على نحو أدق، يبدو قدر الفنان مرهونا بالتحلى بحمولة من الأوصاف التى لن تكون بالضرورة جزءا من إجابة سؤاله المعرفى. من هنا يمكننا القبول بمبررات إضافية للكيفية التى نبتت بها للفنان العربى جلود مضافة كست خلقته الأولى، كذلك ابتكاره مفردات خاصة لتعزيز رباطة الجأش فى وجه طغيان وجهل يبدو تلاقحمها أمرا بدهيا، حيث آلهة الدولة القومية قد تخلت عن مساحيقها لخادعة، بعد أن استحالت الهراوات الغليظة دبابات وطائرات وصواريخ، واكتشفنا بعد عقود من الزمان أن هذه الهراوات، شديدة الحداثة شديدة التدمير ؛ لم تكن جزءا من مخططات إنقاذ الهوية المُجرّحة، بل إنها، مع كثير من المليارات، تمثل المدخرات الوحيدة لقتل الشعوب التى ترزح تحت نير آلهة الحرب المحدثين.

●●●

ستظل مفردات على فرزات المبدعة برهانا على زمن طال، وطفحت أحابيله وأكاذيبه، وانتفخت أوداج زبانيته بسوء

الملفـوظ، وتدلت الكروش منهم على العـروش. و لزمن، طال أكثـر مما ينبغى، سمعنا أطناب الحداثة وسُرّاقها يقدمون البرهان إثر البرهان على أن الشعاب التى خرجوا من بطونها لا تسحق أفضل مما هى فيه، فهى فى أحسن أحوالها ناقصة الرشد، منعدمة الأهلية. كذلك سمعنا آخرين يشجبون عمل الثـوار السـوريين لأنهم يخرجون من الجوامع، ويرفضون وصف بشـار الأسـد بالطائفية، رغم أنه لم يكن ليبق ساعة واحدة في الحكم بغير تحالفات طائفية، ثم يهدرون القيمة الدينية فى حدودها الدنيا حتى باعتبارها إحدى تمثيلات الخبرة الإنسانية.

ومن يتـأمل فـتـوى الراحل الشـيخ"مـحـمـد سـعـيـد البوطي"بشرعنته استحلال أموال السوريين ودمائهم من قبل بشار الأسد، لن يستطيع أن يعثر على فجوات واسعة بينها وبين موقف مثقف وشاعر كبير كـ"أدونيس"، أو فنان لا يشق له غبار كـ"دريد لحام". فتلك الأنظمة لا تكف عن استخدام أرقى وأنبل ما فى القيمة الإنسانية والمعرفية ـ التى من المفترض أن يكون هؤلاء من بين ممثليها ـ كسبيل لإعمال أحط الغرائز وأكثرها فظاظة وغلظة.

أمام أمثال هؤلاء فنحن فى مسيس الحاجة إلى ريشة"على فرزات". فهى وإن امتلكت كل مقومات الفن الرفيع بالإجماع المحلى والعالمى، فإنها لم تتخل لحظة عن رسالتها الأخلاقية تحت أية ذرائع.

وها هو الرجل مطروحا على سرير وحيدا فى مستشفى الرازى بدمشق يسدد الفاتورة نيابة عنا.



فى القرن الرابع الهجرى قام الخليفة العباسى"الراضى بالله"بقطع اليد اليمنى لمؤسس فن الخط العربى العلامة الوزير"ابن مقلة". وبعد أن أُلقيت الذراع المبتورة فى نهر دجلة كتب صاحبها يرثى نفسه ويقول:

ما سئمت الحياة لكن توثقت
بأيمانهم فبانت يمينى
ولقد حُطتُ ما استطعت بجهدى
حفظ أرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذة عيشٍ
يا حياتى بانت يمينى فبيني

وقد كانت الأبيات نفسها سببا فى قطع لسان الرجل لتكتمل صورة الطغيان المستعاد، وليبقى الخليفة الراضى قاتلا ويبقى"ابن مقلة"فى ضمير أمته"علاّمة مغدورا.

هذا أيضا ما ارتكبته يد السفاح"بينوشيه"ضد مُغنّى الثورة الشيلية"فيكتور جارا"الذى ظل يعزف فى الملعب الوطنى بعد أن قطعوا كلتا يديه ثم يطلبون منه الاستمرار فى العزف، وعندما يستمر فى عزفه يردونه قتيلا.

هنا يشفق المرء على الحذاء الذى لازم رسوم"على فرزات"، هذا الحذاء الذى جاهد طويلا فى سبيل الاستئناس، ومع ذلك فشل فى أن يكون تعبيرا عن قيمة مضادة لأصوله غير المشرفة.

لذلك فالحذاء نفسه، كما ظل صالحا للتعبير عن وجه الجلاد، ومقص الرقيب، وهراوة الشرطى، ومسدس جوبلز، سيظل صالحا لأن يكون تعبيرا عن وجوه كثيرة ومتعددة، ربما كان بينها شاعر، وإمام، وفنان، ورئيس دولة.

عبد الرحمن الأبنودى
صانع الحلم والثورة وصديق الأنظمة

لاشك فى أننا عندما نتحدث عن الشاعر عبد الرحمن الأبنودى فإننا نتكلم عن قامة سامقة بقدر لا يمكن التحفظ عليه، سوى عبر ما يمكن أن يتلمسه المرء فى مقاربات خارج الشعر، ومن ثم فتقديراتنا لمواقف الشاعر خارج شعره ستظل محل مراوحة بين التأييد والمعارضة لاسيما إذا ما طرحنا السؤال المجهد: هل يمكن للمواقف السياسية والعقائدية أن تخصم أو تضيف إلى منجز الشاعر؟ ثمة تيار من الرومانسيين لازال يربط بين منجز الشاعر ومواقفه باعتبار أن الشاعر ما هو إلا حاصل جمع قناعاته وأفكاره ومواقفه، وثمة تيار آخر يدعى أنه الأكثر عقلانية وحداثة يرى أن الشاعر لا يجب أن يخضع لمثل هذه الأحكام الأخلاقية التى تغيب عنها الموضوعية باعتبار الأحكام الأخلاقية نفسها تعد تعبيرا عن منظومة من القيم المتحولة وغير الثابتة تاريخيا.

وفى كل الأحوال لا يمكن للمرء أن يُسلم مكرها أو راضيا بكلا الاتجاهين. فمنجز الشاعر عبد الرحمن الأبنودى، وإن لم تنل منه مواقفه العقائدية أو السياسية، فإنها مواقفه فى نهاية الأمر ولابد من التوقف أمامها كما يحلو لكثيرين أن يتعاملوا مع شاعر بقامة الأبنودى، باعتبار أن دوره تجاوز كونه منتجا لنص شعرى إلى كونه واحدا من المؤثرين فى صناعة سلم القيم المجتمعية بسبب من شهرته الذائعة وتأثيراته الجمة على أكثر من صعيد. ولا يجب أن يمنعنا هذا اللغط، الذى يبدو منهجيا أكثر مما ينبغى، من الإقرار بأن المنجز الشعرى للأبنودى فى جملته تأكيد وتعزيز لسلسلة من القيم الجمالية التى ورثتها الذائقة الحديثة فى العقل العربى عموما والمصرى على نحو خاص وهو مناط طليعيته وتقدميته. فقد ارتبط شعر العامية قبل بيرم التونسى وفؤاد حداد وصلاح جاهين بنموذج للتعبير الاجتماعى أطلق عليه النقاد فن"الزجل"، وهو شكل تعددت روافده وأشكاله، غير أنه بقى تعبيرا عن الأنماط التقليدية فى الوعى لأنه ظل مرتبطا بالوظيفة الاجتماعية كشعر مناسبات بالأساس، فظلت روح الشاعر بعيدة تماما عن الحفر فى المعنى ومن ثم بعيدة عن التأثير فى تجديد اللغة

وكذلك تجديد معرفتنا بالعالم عبر غناء منفرد هو أعلى تمثيلات الذات الشاعرة. لذلك كان ثمة حتمية لدى الشعر الجديد أن يعيد النظر فى الدور الاجتماعى للفن دون أن يكون ذلك ضد وظيفته أو ضد قارئه. وقد كان الإدراك المبكر للشاعر عبد الرحمن الأبنودى بحتمية إعادة النظر فى القيم الجمالية البالية الموروثة عن تركة المحافظين من الشعراء الشعبيين استباقا واستكمالا لوعى أسس له رواد العامية الجديدة. ولاشك أن قارئ الأبنودى ستعاوده تلك التصورات بمجرد مطالعة الأعمال الأولى للشاعر.

وقد يكون ديوان"الأرض والعيال"واحدا من تلك التمثيلات رغم أنه الديوان الأول للشاعر. كان هذا الديوان إيذانا بحلول مرحلة جديدة من الوعى الجمالى والسياسى والمجتمعى، حيث الزجل وشعر المناسبات يغادران موقعهما تاركين الساحة أمام وعى جمالى شديد الجدة والطزاجة من ثم امتلك كل مقومات الإزاحة. ورغم تلك التحفظات العاقلة التى أبداها الناقد سيد خميس، فى مقدمته المهمة لهذا الديوان الذى صدر عام ١٩٦٤ عن دار"ابن عروس"التى أسسها الأبنودى وسيد حجاب وشاركهما فيها الشاعر الكبير صلاح جاهين

حيث صدر عنها ثلاثة دواوين من أهم ما صدر فى شعرنا الحديث هى: "رباعيات صلاح جاهين"، والديوان الأول للشاعر سيد حجاب "صياد وجنية" ثم الديوان الأول أيضا للشاعر عبدالرحمن الأبنودى "الأرض والعيال"، إلا أن تلك المقدمة للناقد الراحل سيد خميس، التى أنكرها الأبنودى بعد ذلك رغم أنها كانت إحدى الروافع التى ساهمت فى نجاح كبير حققه الديوان، تشير بوضوح وجزم إلى أن جيل الأبنودى جاء لاستكمال بناء قائم بالفعل ولم يأت ليخط بداية جديدة، مما يعنى أن فكرة إنكار الماضى بما فيه من أسلاف ليس واردا، لكنه فى الوقت نفسه يشير إلى أن تمدد مناخات الوعى القومى الجديد الذى ارتبط بمشروع سياسى كبير قاده الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذى كان الأبنودى واحدا من أكبر مناصريه ومناصرى ثورة يوليو ١٩٥٢ بصفة عامة، كان يعنى بالضرورة مزج عناصر مركبة أكدت أن الشعر الجديد كان أكثر وعيا بلحظته عبر ارتباطه بموقف إنسانى أكثر شمولا بدا فى انحيازات جمالية على صعيد التركيب اللغوى، وابتكار أشكال جديدة للتعبير والانفتاح على آلام الإنسان المعاصر وكذلك ولوج الشعرية الجديدة إلى الصراع

الحضاري دون انفصال عن الصراعات العقائدية والسياسية التي كانت الأكثر تأثيرا في مصير البشرية منذ بزوغ العصر الصناعي، هذا ما جعل من الأبنودي وجيله طاقة أمل حقيقية ساهمت في تجديد الروح الشعرية والإنسانية لأمة كانت تبحث عن صوتها في صوت من انتخبتهم ممثلين لروحها الجديدة.

لم يكن الأبنودي المولود في عام ١٩٣٨ بقرية أبنود في محافظة قنا سوى واحد من تلك"الشلة"التي سُميت بشلة"شقة العجوزة"، وهي شقه تعد بين أشهر الشقق في قاهرة الثقافة. فقد كانت تلك الشقة محط اجتماع القاص والروائي يحيى الطاهر عبد الله والشاعر أمل دنقل و الشاعر سيد حجاب والتشكيلي عدلي رزق الله و الناقد سيد خميس والكاتب الصحفي صلاح عيسى ثم انضم لتلك الكوكبة فيما بعد أسماء مهمة أيضا مثل الشاعر الراحل عبد الرحيم منصور. كانت تلك الجغرافيا الضيقة التي جمعت كل هؤلاء متسعة الرؤيا بدرجة دفعتها لاستيعاب المختلف والمؤتلف على المستويين الفكري والجمالي، حيث تخرّج من عباءتها فنانون مثلوا فيما بعد واحدة من أبرز ملامح الفن المصري.

كان الأبنودى يسير دائما وخلفه الكثير من التراكم الحضارى القادم معه من أقصى الجنوب ومن أكثر مناطق صعيد مصر فقرا، حيث ولد بمحافظة قنا لأب يعمل مأذونا شرعيا، وباعتباره رجلا أصوليا كان يمزق كل ما تقع عليه عينه من منجزات الابن المارق فى رأيه. هذه المناخات دفعت الأبنودى للتمرد على وظيفته الحكومية فى محكمة قنا التى التحق بها بمؤهله المتوسط. غير أنه أدرك مبكرا أن موهبته لن تتبلور سوى فى قلب مركزية القاهرة وأضوائها الساطعة وهو ما حدث بالفعل. ثم كانت محطته الأهم بزواجه من مخرجة الأفلام التسجيلية ذائعة الصيت عطيات الأبنودى التى عاشت معه حلم الفن وحلم اليسار السياسى باليوتوبيا الأرضية التى ارتبطت بالمشروع القومى. وفى ظل هذه الزيجة أصدر الأبنودى أهم أعماله الشعرية التى صنعت منه ذلك الاسم الكبير والمؤثر فى حياتنا، غير أن الأبنودى انفصل عن زوجته فى نهاية الثمانينيات وتزوج بالمذيعة الشابة آنذاك نهال كمال وأنجب منها ابنتيه"آية"و"نور"، وفى أخريات أعوامه انتقل للعيش فى مدينة الإسماعيلية استشفاء من مرض بالصدر لازمه حتى رحيله.

ارتبط الأبنودى بعلاقات وثيقة بكل الأنظمة السياسية التى عاصرها شابا وكهلا وشيخا. ورغم أن الأبنودى لم يعتنق الفكر اليسارى فى أية لحظة إلا أن عباءة اليسار المتسعة فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى التى استوعبت عشرات الأصوات الطليعية على صعيد الفكر والفن كانت واحدة من أسباب تأييده لثورة يوليو ونظامها السياسى، وقد استطاع أن ينجز فى ظلالها أهم دواوينه الشعرية وفى مقدمتها ديوانه: الأرض والعيال الذى صدر فى طبعته الأولى عام ١٩٦٤ ثم ديوانه الزحمة الصادر عام ١٩٦٧، وعماليات عام ١٩٦٨، ثم ديوانه جوابات حراجى القط ١٩٦٩ وهو واحد من أهم دواوينه الشعرية حيث يكرسه لمؤازرة مشروع السد العالى الذى كان يمثل بؤرة المشروع الناصرى لاسيما بعد هزيمة السابع والستين. ثم أصدر الأبنودى ديوانه المهم"الفصول"الذى شهد أعلى تحقق شعرى له. ورغم أنه سُجن لأيام قلائل فإنه لم يتخل عن تأييده لثورة يوليو حتى آخر عمره. أما فى الحقبة الساداتية، التى ظلت حتى انتصار أكتوبر تمثل امتدادا للحلم القومى، فقد ظل الأبنودى واحدا من المشاركين الرئيسيين فى المشهدين الشعرى والسياسى

بأناشيده الوطنية حتى نهاية حقبة مبارك التى شهدت اكتمال نجم الأبنودى.

ويبدو أن تلك العلاقة الدافئة بين الأبنودى والأنظمة الجمهورية الثلاثة لم تمنعه من تأييد واسع النطاق بل مسرف فى تجلياته لثورتى الخامس والعشرين من يناير ثم الثلاثين من يونيو وقد سطر الكثير من الشعر فى مديح الثورتين، لكنه ظل مؤيدا للجيش وللرئيس عبد الفتاح السيسى ، وقد كان فى مقدمة المثقفين الذى التقوا رئيس الجمهورية عقب انتخابه كممثل للمثقفين المصريين.

غير أن ذكاء الشاعر عبد الرحمن الأبنودى جعله دائما محافظا على المسافة بين علاقته بالسلطة وبين مضامينه الشعرية التى احتفظت بزخمها الثورى رغم تلك العلاقة، وقد تواتر ذلك فى أكثر من ديوان شعرى له فى حقبتى السادات ومبارك، فقد حملت العديد من دواوينه فى تلك الفترة انتقادات مؤلمة لعسف السلطة السياسية بشعبها. وقد كانت التمثيلات الشعرية على ذلك شديدة النصاعة فى دواوينه: المشروع والممنوع والأحزان العادية والموت على الإسفلت وهو الديوان الذى حمل أقسى القصائد ضد عسف الأجهزة الأمنية ضد معارضى النظام السياسى.

من هنا احتفظ المشروع الشعرى للأبنودى بطزاجته وحيويته ومن ثم تجدده وظل ولازال واحدا من أهم المشروعات المؤسسة فى شعريتنا الحديثة. وقد عزز موقع الأبنودى كواحد من صناع القيم عامة الشيوع الواسع لقصائده المغناة التى كتبها لكبار الفنانين والمطربين المصريين على نطاق واسع منذ أن بدأ مشواره مع الفنان الصاعد آنذاك محمد رشدى بالأغنية الشعبية الشهيرة"تحت الشجر يا وهيبة"حيث استمر بعدها فى التعاون مع رشدى حتى نهاية حياته، ثم انفتح على الكثير من الفنانين وكبار الملحنين مثل عبد الحليم حافظ وشادية ونجاة الصغيرة وصباح وغيرهم. كذلك كان ارتباط اسم الأبنودى باسم مطرب السيرة الهلالية الراحل جابر أبو حسين واحدا من أهم أسباب حضوره الطاغى لدى الفئات الشعبية الأقل تعليما، وهى السيرة التى تتبعها الأبنودى من جنوب الجزيرة العربية حتى وصوله إلى تونس مستقر الهلالية، ثم جمعها بعد ذلك فى مجلد ضخم كان يقول دائما إنه ليس من تأليفه وإنما هو غناء الشعب العربى.

حصد الشاعر عبد الرحمن الأبنودى عشرات الجوائز وأرفعها فى مصر وخارجها حيث حصل على جائزة الدولة

التقديرية عام ٢٠٠١ ثم حصل على الجائزة الأعلى"جائزة مبارك"عام ٢٠١٠، وينظر إلى الأبنودى باعتباره واحدا من رواد قصيدة العامية الحديثة فى مصر، غير أن ذلك لم يمنع منتقديه من كيل السباب له كلما ذُكرت سيرته مع الأنظمة السياسية التي أسقطتها ثورتا مصر لاسيما علاقته الحميمة بنظام الرئيس المخلوع حسنى مبارك.

الشاعر سيد حجاب
بين غناء الناس ومزايدات السياسة

كثيرون من شعراء العامية فى مصر من جيل السبعينيات والأجيال التى تلته يعتبرون تجربة الشاعر سيد حجاب واحدة من أهم التجارب التى فتحت باب التجديد فى نص العامية المصرية. فقد شهد قوس تلك القصيدة انغلاقا صعبا بعد تجارب مؤثرة ورائدة بدأت بتجربة بيرم التونسى ثم فؤاد حداد وصلاح جاهين مرورا بالشاعر عبد الرحمن الأبنودى وأحمد فؤاد نجم. كان سيد حجاب بين أكثر أبناء جيل الستينيات ثقافة وارتباطا بالحراك السياسى عبر اعتناقه الماركسية فى سن مبكرة بعد تجربة مريرة فى صباه الباكر مع تنظيم الإخوان المسلمين انتهت بمحاولة لاغتصابه فى أحد معسكرات الجماعة. وقد كان لنشأة حجاب فى قرية المطرية المجاورة لبحيرة المنزلة بمحافظة البحيرة تأثير كبير على مسارات حياته. فهى قرية صيادين يمثل الغناء زادا لعامة القاطنين فيها، فى الوقت نفسه تحدر حجاب من أسرة متوسطة حيث تعلم الأب فى الأزهر ورغم أنه لم يكمل تعليمه

فإنه كان له الفضل الأكبر فى توجيه الشاعر حسبما يكشف فى أكثر من شهادة له، فقد كان لدى الأب مكتبة ضخمة استطاع حجاب أن يطالع عبرها عيون الأدب العربى من أغانى الأصفهانى حتى العصر الحديث حيث أعمال المنفلوطي والحكيم والمازنى والعقاد ومحفوظ.

كانت أول قصيدة كتبها سيد حجاب فى حياته بمناسبة ضرب بورسعيد حيث كانت سنّه أحد عشر عاما، وكان ذلك عقب مظاهرة مدرسية لشهيد من أبناء المرحلة هو نبيل منصور، وكان طفلا، دخل مع مجموعة من الفدائيين إلى أحد المعسكرات النازية لحرقه فأطلقوا عليهم الرصاص. وقد استمر حجاب لفترة طويلة يكتب بالفصحى ويقرض الشعر العمودى.

وفى سن مبكرة التحق بصفوف الإخوان المسلمين وكان ضمن أشبال الدعاة وكان أحد المتميزين بين أقرانه حيث كان يلقى خطبه شعرا، ثم انتقل إلى حزب مصر الفتاة، وكان ذلك على أثر حادثة أخلاقية اعترف بها حجاب عندما قال فى إحدى شهاداته المدونة: حدث ذلك فى أحد المعسكرات التى كان يقوم بها الإخوان فى بورسعيد حيث حاول أحد الإخوان

اغتصابى، بالإضافة إلى انزعاجي الشديد من اعتراض الإخوان على الجلاء. ويضيف حجاب أنه انتقل بعد ذلك إلى الإسكندرية لاستكمال دراسته، وكان فى السادسة عشرة من عمره، ثم التحق بمنظمات ثورة يوليو وحدث نوع من التلاقى مع الناصرية ثم التحق بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية عام ١٩٥٦ وعاش أياما خصبة وسط النشاط الطلابى الضاج فتعرف لأول مرة على شعر صلاح جاهين عبر ديوان"موال عشان القنال"وكذلك ديوان فؤاد العنتيل الذى قدمه لأول مرة فى مجلة كان يصدرها يوسف السباعى هى مجلة الرسالة. وبعد الإسكندرية انتقل حجاب إلى القاهرة بعد أن كان قد اختار طريق الشعر رغم أنه كان لم يزل فى عامه الدراسى الأول بالجامعة، ويقول إن ذلك كان سببا فى انتقاله من قسم العمارة أى قسم المناجم حتى يتمكن بعد التخرج من العمل بالصحراء لمدة طويلة تمكنه من القراءة وتثقيف نفسه، لذلك كان قد قرر ألا ينشر شيئا من شعره سوى بعد تحقيق النضوج الذى يرضى عنه، غير أنه فوجئ بأن أحد أصدقائه قد أرسل شعره إلى المذيعة سميرة الكيلانى وفوجئ بالناقد محمد مندور يتحدث عن تجربته ويتغزل فى قصائده

ويمتدح معرفته بالأشكال الشعرية المختلفة، ويصف حجاب هذا الموقف بأنه أحد أكبر المواقف المؤثرة في حياته لما كان للناقد محمد مندور من مكانة مرموقة لا تطال في ذلك الوقت. بعد ذلك نشر حجاب بعض القصائد في مجلة الشهر التي كان يختار الشعر فيها الدكتور عبدالقادر القط، وكان يترأس تحريرها سعد الدين وهبة.

وعلى صعيد العمل السياسي كان سيد حجاب قد انضم لتنظيم يسمى وحدة الشيوعيين وكان يضم عددا من الخارجين على حركة حدتو بسبب قراءاتهم لثورة أكتوبر. قرأ حجاب أدبيات التنظيم وأعجب بها وكان المسئول عنه تنظيميا في ذلك الوقت هو على الجنجيهي وحمدي قنديل ومحمد العزبي. وقد استطاع سيد حجاب أن يقوم بتجنيد عدد من الأسماء المهمة مثل سيد خميس الذي كان له دور كبير في تجنيد عدد من الأسماء اللافتة هو الآخر مثل صلاح عيسى وعبد الرحمن الأبنودي. كان شعار التنظيم التكتيكي هو الديمقراطية، حيث تم تشكيل لجان ديمقراطية بعيدة عن التنظيم لتتمكن من تجنيد أعداد أكبر.

اعتقل سيد حجاب عام ١٩٦٦ لكنه كان قد بدأ المشاركة الفعلية في الحياة العامة، وفي العام نفسه تم إلقاء القبض

على جماعة وحدة تنظيم الشيوعيين وجماعة الطليعة الشعبية، ورفض التنظيمان إعلان حل الأحزاب الشيوعية فاعتقل أعضاؤهما.

ومن الملاحظات العميقة التى رصدها حجاب فى سلوك التنظيم أنه فى الوقت الذى كان يقرأ فيه هو وزملاؤه قراءات يسارية كانوا يسلكون سلوكا يمينيا، حيث تعاملوا مع الواقع باعتباره واقعا ديمقراطيا؛ لذلك بمجرد أن كشفوا عن أنفسهم تم القبض عليهم.

ويعترف سيد حجاب أنه ليس موهوبا فى العمل السياسى لذلك رفض العمل السياسى فيما بعد، ورفض أيضا العمل السياسى فى كافة الأحزاب وظل شاعرا واعتبر أن الشعر هو مدخله إلى كل شيء.

إلى جانب الشعر تعلق حجاب بالمسرح وقرأ كل تراثه الحديث والقديم فى مصر، وكان رأيه أن المسرح المصرى ظل مسرحا للطبقة الوسطى ولم يتحول إلى مسرح شعبى، ومع ذلك يعترف بأن هناك محاولات عبقرية لمحمود دياب ويوسف إدريس لكنها ظلت شقشقة مثقفين.

بعد ذلك سافر سيد حجاب إلى أوروبا وأقام عامين ونصف العام فتعرف على المسرح الأوروبى، وكانت

الستينيات هى حقبة الشباب سواء كان ذلك عبر ربيع براج أو عبر ثورة ١٩٦٨ وغيرهما، ويرى حجاب أن هذا الحراك الذى عكس عدم ثقة الشعوب فى أنظمتها دفع الفكرة المسرحية إلى التغيير، لذلك فإنه عندما عاد من أوروبا كوّن مجموعة كان ينشد أن يقدم عبرها مسرحا مختلفا. منذ عام ١٩٦٥ قرر حجاب احتراف الكتابة وأن يعيش من الأدب لكنه بعد العودة كانت الأواصر قد تقطعت مع التليفزيون بسبب تهمة الشيوعية اللصيقة به، وظل لسنوات يحاول إعادة علاقته بالتليفزيون.

ومنذ أن صدر ديوانه الأول"صياد وجنية"استقبل بحفاوة واسعة على كل المستويات النخبوية لكنه فوجئ بأن أهله الذين كتب من أجلهم هذا الديوان لم يقرءوه فشعر بالضلال، واتجه فورا إلى الإذاعة الأوسع انتشارا وقدم أول برنامج إذاعى مع الشاعر عبد الرحمن الأبنودى هو بعد التحية والسلام، ثم اتسع تعاونه مع الإذاعة والتليفزيون وبعد ذلك بدأ يتعرض لمحاكمات من اليسار القديم بتهمة خيانة قضيته، وتم اتهامه بأنه ترك الشعر لصالح الغناء.

لا ينكر حجاب فضل أساتذته عليه حيث كان أولهم والده الذى علمه أن السليقة الشعرية لا بد أن يصقلها الدرس

ويأتى بعد ذلك دور أستاذ الرسم المثقف والفنان شحاتة سليم الذى لفته إلى علاقة الشعر بالحياة، والثالث هو الدكتور محمد مندور الذى علمه العديد من الدروس، فقد علمه أن يعيش ثقافته، أى كيف تكون الثقافة نمط حياة وليست واجهة للمثقف فحسب، أما الرابع فهو صلاح جاهين الذى كانت فرحته بميلاد شاعر كسيد حجاب فادحة وقد قدمه فى مجلة"صباح الخير"بحفاوة منقطعة النظير، ثم الدكتور حسن فهمى والد الفنانة فريدة فهمى.

وعن تجربة مجلة"جاليرى ٦٨"فقد تعرف سيد حجاب عبر شقته - التى كان يملكها بشارع الشيخ ريحان - على الراحل إبراهيم منصور ومصطفى الحسينى، وكان ذلك بعد النكسة حيث كان الجميع ينطلق بعد هزيمة الجيش المصرى من مفهوم واحد هو أن الثقافة حائط الصد الأخير، فصدرت"جاليرى ٦٨"ثم جاءت مجموعة أخرى حاولت أن تشد المجلة إلى العمل السياسى بمعناه الأيديولوجى لا سيما اليسارى فخرجت تلك المجموعة من المجلة.

وقد عمل سيد حجاب فى مجلة الشباب مع الراحل أحمد بهجت، وقد قام فيها بدور عميق ومؤثر فى تعريف مصر كلها

بجيل السبعينيات الذى أفرز فيما بعد جماعتى أصوات وإضاءة، وبعد أن جاء مفيد فوزى إلى المجلة قدم حجاب وزملاؤه استقالة جماعية فأغلقت المجلة.

كان سيد حجاب قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير يرى أن مصر فى وضع انقلابى، فالوضع السياسى ليس مؤهلا لثورة والقوى الحاكمة ليست مؤهلة للحكم بالسليقة والحكومة ليست مؤهلة لأن تحكم كالسابق، لذلك كان يرى أن هذا الوضع هو الملائم للانقلابات.

فمن كان يحكم مصر ينتمى لفصيل الرأسمالية غير الوطنية المرتبطة بالرأسمالية العالمية، وهو أحدث شكل للاستعمار، فى المقابل فإن الشكل المطروح للشعوب هو الثورة الوطنية التى تندغم بثورة اشتراكية.

فمصر التى كانت إقطاعية تحولت مع ثورة يوليو إلى دولة مختلفة عبر الرأسمالية الوطنية، ثم قاد السادات الثورة المضادة، والتى انتهت إلى رأسمالية ملحقة بالرأسمالية الأجنبية فى ظل عدم وجود قوى سياسية شعبية. أما الطبقة المتوسطة، فى رأى سيد حجاب، فهى طبقة منوط بها أن تخلق ثقافة وطنية وأن تؤسس لدولة حديثة أو دولة المواطنة وهى لم تفعل ذلك.

غير أن نبوءة الشاعر اختلفت قليلا فبدلا من الانقلاب الذى توقعه وقعت الثورة الشعبية وكان حجاب من أوائل مؤيديها، ولازال مستمرا فى تأييدها، ورغم أن حجاب كان من المناهضين لحكم الإخوان المسلمين فإن تأييده للنظام الحالى يظل مشروطا بالكثير لاسيما فيما يتعلق بقضايا الحريات والعدالة الاجتماعية.

يعتبر سيد حجاب واحدا من الشعراء الذين ساهموا فى صياغة الوجدان الشعبى المصرى منذ ستينيات القرن الماضى، فعندما دخل الشاعر مجال الأغنية قدّم مئات الأغانى لكبار المطربين مثل عفاف راضي وعبد المنعم مدبولي وصفاء أبو السعود، ثم كتب العديد من الأغانى لفريق الأصدقاء فى ألبومها، ثم أتبعه بألبومين هما "أطفال أطفال" و"سوسة". بعدها لحن له بليغ حمدي أغنيات لعلى الحجار وسميرة سعيد وعفاف راضى، وقدم معه الحجار "تجيش نعيش" وكتب لمحمد منير فى بداياته أغنية "آه يا بلاد يا غريبة" فى أول ألبوم له، ثم أربع أغنيات فى ألبومه الثانى، ثم كتب أشعار العديد من الفوازير لشريهان وغيرها بجانب العديد من التترات شديدة التميز لعشرات المسلسلات.

أيها النَّــزق حلمى سالم..
متى تظهر عليك عوارض الحكمة؟! (★)

من الخطيئة الأولى ولدت المعرفة، ومن المعرفة.. ولد الشعر.. ولد حلمى سالم.

ومن الخطيئات المتصلة ولد التعدد، ولدت الحياة كما ولد الموت، تستوى فى ذلك درجات الوعى بالإثم ودرجات الوعى بالنموذجِ والمثال.

وحلمى سالم الذى يكتب على غير مثال، صار مثلا.. حمل فى عنقه وزر الخطيئتين. صار نموذجا للنزق، صار آبقا، حاملا لراية الإثم ، وسيدا للعصاة.

بالأمس القريب كنا نتلفت على الأثر السبعينى فى مرايا محطمة، بالغت فى تشويه الوجوه بقدر ما ضاعفت من غلظة السحنة وتثاقل الأطراف، اليوم ونحن نقف على مبعدة من تلك المرايا، أصبح بإمكاننا أن نرى الأحجام والوجوه على

(*) كلمة افتتاحية ألقيت فى احتفالية بالشاعر أقامتها حركة "شعراء غضب" فى نقابة الصحفيين بالقاهرة يومى السادس والسابع من مايو من عام ٢٠١٢، قبل رحيل سالم بأيام معدودات.

حقيقتها، وأن نتأمل كيف خدعنا رفاقُنا، وكيف خدعنا أنفسنا.

أذكر أنني طالعت نصا فاتنا فى منتصف الثمانينيات بمجلة إبداع لحلمى سالم هو"تقلب خطة القلب"وهو النص الذى ضمنه حلمي، فيما بعد ديوانه،"الشغاف والمريمات".

كان النص فى ذيل المجلة، أعنى فى بابها الشهير "تجارب". وكان الباب في حد ذاته يبدو بابا للشيطان، بمعنى أدق، بابا للمارقين، حتى لو احتسبه الراحل الجليل عبد القادر القط بابا للاستتابة. كانت استقطابات المجاز وكثافة الشعرية والوعى المتجدد بأغراض الشعر وتطوحات لغته تبدو كلها - للوهلة الأولى - كعلم لدنى، إلا أننا سرعان ما سنكتشف أن الشاعر يملك من الجسارة ما يدفعه لتحطيم قوى النظام، فتتحول اللغة من كونها هيكلا مقدسا وكهنوتيا إلى ملكية يتشارك فيها كل صناعها، وهو ما يحول لغة حلمى دائما من أسطورة شخصية إلى أسطورة صنعتها التداولية العامة، صنعتها أنفاس العشاق وأنات المسحوقين، صنعها الفلاحون والصيادون وآلام الأنبياء العزل، وطاردتها دائما مجامع اللغة. ربما لذلك بقى القاموس الشعرى لحلمى سالم هو

الأكثر غرابة وإدهاشا بين كافة الأجيال. ربما لذلك أيضا بقى هذا الوعى قادرا على جعل اللغة ممكنة.

لقد كان بمقدور حلمى سالم دائما أن يمارس حرية تجاوزت أفق الفوضى وقوى النظام إلى ما بعدهما، و ربما انسحب ذلك على كل مستويات حياته. فلم يأبه بتراتبية المرجعية الجمالية، كما لم يأبه بصلف وقسوة المرجعيتين السياسة والعقائدية واستغراقهما فى اللجاجة. فبنفس طاقات الصدق التى كتب بها عن عشرات المناضلين، كتب أيضا عن عشرات العشيقات، وهو لا يستحى"حسب تعبير أمجد ناصر": "من كتابة قصيدة يذكر فيها أنه يقضى الليل كله، يقيس حوض أنثاه.

هل لهذه الأسباب حذرنا الشيخ يوسف البدرى من السموم التى يبثها حلمى سالم فى أشعاره؟!

أذكر أن الناقدة"آن واد منكوفسكى"قالت ذات مرة إنها استمعت بدهشة بالغة لفتاة فى الجامعة الأردنية تطالب باستئصال أشعار"أدونيس"باعتبارها تمثل خطرا على الأمة، فسألتها الناقدة بدورها: كيف يمكن لفتاة فى عمرك أن تتحدث بكل هذا اليقين عن أشياء محلها الميتافيزيقا

الخالصة؟! الأمر نفسه فعله الشيخ يوسف البدرى عندما تحدث إلينا كمفوض بحراسة الذات العلية، وربما من هنا تأسست قناعته بأن الزج بحلمى سالم فى السجن يعد عملا من أعمال البر. لكن حلمى، الأقوى من كل أعدائه، تصرف كما يتصرف بطل أسطورى من مصر القديمة ؛ فقد حفر قبره وأوصى وارثيه بأن يضعوا أمامه سيفه وعجلته الحربية كحارسين أخرقين، ليقول لنفسه: أجل إن الحياة صعبة جدا وبقدر ما تحتاج إلى هؤلاء المهرجين الذين يتقمصون أدوارا ليس ضروريا أن يتقنوا صنعها ؛ تحتاج أيضا لمن يملك القدرة على تصويب الكثير من تلك الأخطاء.

إننا ونحن نحتفى بحلمى سالم، نحتفى، فى الحقيقة، بالقوة التى لم نتمكن من امتلاكها، بالتشبب الذى لم نعشه، بالشعر الذى لم نكتبه، بالنساء اللائى احتقرناهن ثم بكينا فى السر تحت أقدامهن، بالمغامر الذى تمنيناه فينا ثم امتشقنا رباط العنق ووقفنا فى صفوف المتأنقين، بالحرية المسكينة التى اختلسها حلمى بخفة يده ولم يترك لأتباعه أثرا يدل، حتى، على ما تبقى من عظامها، نحتفى كذلك بالشيخوخة التى لم تترك أيا من عوارض الحكمة على جبين صاحبها.

إنها خفة حلمى سالم عندما يختطف قصائده، لغته، روغه واحتيالاته على الشعر كما على المحبين، نزقه الذى يظل وعدا واستحقاقا فى آن. ربما لذلك أجدنى كلما قرأت حلمى سالم أتذكر أشعار الفوضوى الكبير، شاعر جيل الغضب الأمريكى"شارل بوكوفسكي"، الذى كان يصطاد لغته من أفواه العامة ومن مقاعد الفقراء والمسحوقين وكان ينظر للغة باعتبارها نعالا أنيقة لا يبجلها إلا أنصاف الشعراء. وحلمى الذى لم يقم اعتبارا كبيرا لطوطمية اللغة يجد نفسه رفيقا لبوكوفسكى ليس على مستوى قناعاته الجمالية فحسب بل على مستويات سلوكية ربما تفسر لنا تلك المقاربات الغريبة، فبوكوفسكى الذى لم يتورع عن ارتكاب أية حماقة، ولم يتراجع عن مصادقة المحنة، ولم يجد شيئا مستقيما فى حياته إلا لوى عنقه، حلّ، ذات مرة، ضيفا على أهم برنامج تليفزيونى فى فرنسا بصحبة عدد من كبار النقاد وبحضور الروائية"كاترين بيزان"، فشرب كعادته، قبل كل لقاء، زجاجة كاملة من النبيذ الأبيض، وعندما بدأت الحلقة لم يترك أحدا إلا سبّهُ ثم جلس يربت بكلتا يديه على مؤخرة الروائية الجميلة، فقطعت القناة بثها على الفور وما كان من الحراس

إلا أن ألقوا بالرجل فى الشارع، ولكى يخرج مقدم البرنامج من محنته انبرى قائلا لمشاهديه: سيداتى وسادتى: ألا ترون معى أن أمريكا فى حالة يرثى لها؟!

وحتى لا أقع فى المحظور عليّ أن أوضح أنه، ورغم الأمور المشتبهات، ثمة فوارق شاسعة بين حلمى سالم وبوكوفسكى، فحلمى ليس شتاما بل ربما يعانى فائض رقته ولين طرفه، كما أننى أبدو واثقا من أنه لا يدس فى جيب سترته، وهو بيننا الآن، زجاجة كاملة من النبيذ الأبيض، والأهم من ذلك أن من يجلس إلى جواره، على تلك المنصة، ليس بالتأكيد تلك الروائية الجميلة كاترين بيزان. لذلك فليس فى مقدورى أن أنظر بعيدا عنه لأقول لكم: سيداتى وسادتى: ألا ترون معى أن مصر فى حالة يرثى لها؟! ربما العكس هو الصحيح.. لذلك دعونى أنظر إلى حلمى سالم قائلا له ما قاله عمارة بن عقيل لأبى تمام:

"يا أبا تمام أمراء الكلام رعية لإحسانك"..

دام لنا حلمى سالم.. دام الشعر ودام النزق.

الباب الرابع :

أصوات من القُدَّاس الأرضى

بين الأنواع الرفيعة والأنواع الوضيعة..
صورة لمحفوظ مع القدّاس الأرضى

لم يكن الامتياز الوحيد لفن الرواية أنها كانت ولا تزال تشكل التمثيل الأعلى لفن"اللانوع"باختراقها الدائم لصنمية الشكل الإبداعى الذى وصلت إليه فنون مستقرة وتاريخية يأتى الشعر على رأسها. ويحلو للبعض هنا صناعة مساحات غير أخلاقية وغير علمية من التمييز بين الفنون، فتصبح تاريخية الشعر بابا للانتساب لما يمكن أن يسمى بالفنون الرفيعة، فى مقابل الفنون الأكثر هجنة والأحدث تاريخا مثل الرواية، حيث تحتل مرتبة أدنى موصوفة، عادة، بالوضاعة.

ورغم أن التعبير لا ينطوى على أبعاد أخلاقية فإنه يعكس واقعا كارثيا فى الفهم وغوغائية فى الاستماع إلى صوت الإنسان فى الكون، فيبدو الوصف انزياحا لمراكز وحلولا لمراكز أخرى مهمتها تنحصر فى الدفاع عن رفعتها المزعومة كإرث تعضده الآلهة. يتم ذلك عبر خطابات تخويفية لا تخلو من أكاذيب تاريخية عن نقاء الأنواع، بشرية كانت أو إبداعية. ربما لهذه الأسباب كان"سبينوزا"يصف الفكر الإنسانى بالمبالغة فى الحركة فى مقابل الكثير من سوء الفهم.

وأتصور أن فن الرواية، فى وجه منه، كان استجابة مبكرة لتصورات ما بعد الحداثة باعتبارها كتابة تنتهك الأنوا ع لأنها تقف ضد مفهوم"الراوى العليم"، بالإضافة إلى كونها، أى الرواية، ظلت تمثل بطانة تحوى عشرات المتناقضات، فهى مكللة بالشعرية والدرامية أحيانا، وملعب لتعظيم اللغة وتحطيمها فى الآن نفسه ، وهو ما جعلها تبدو فى وجه منها سجلا مؤلما لمخازى الوجهاء، و فى وجه آخر فاضحة لفروسية وانحطاط أسافل الناس، دون أن يكون ذلك، بالضرورة، سليل لغة فردوسية أو رسولية تتقصى نفسها فحسب، أو أن يكون ذلك خضوعا لسلطان هذا"الراوى العليم"، كلى المعرفة، مطلق السلطة الزمنية.

وقد أدرك نجيب محفوظ، على خطى أسلافه.. وهو العارف المجيد باللغة الإنجليزية، أن الرواية فن الواقع وما تحته، من هنا كان تعرضه لأكثر الموضوعات استغلاقا على الفهم، أعنى موضوعات تبدو فيها الأديان شريكا لمن بعثوا ومن لم يبعثوا على هذه الأرض، ومع ذلك بدا أكثر بشرية مما ينبغى، وأكثر أمثلة محفوظ نصاعة يتبدى فى روايته"أولاد حارتنا"، التى تحول فيها آدم أبو البشر إلى"أدهم"المطرود من جنة

الجبلاوى، وكذلك تنزلت فيها عدالة"جبل وقاسم"من الفردوس السماوى إلى الجحيم الأرضى، فى مقابل هشاشة وتسامح"رفاعة المسيح"، وهو ما يشير إلى تحول محفوظ بالنموذج اللاهوتى برموزه، التى تعد ترجيعا لشخوص وأفكار ذات تجليات مقدسة، إلى نماذج تضج ببشريتها بحيث لم يتبق لها من قداستها سوى كونها تعبيرا عن القيمة العليا أو القيمة المثال التى أرسلت إلى الأرض. وسنجد هذه النماذج الترجيعية تمتهن أحط المهن وتأكل من زاد الناس وتعانى الفقر والكلال.

وقناعة محفوظ هنا بأنه خارج مفاهيم الأدب الرفيع تعنى بالضرورة أنه أصبح مطلق السراح ومن ثم فهو أكثر حرية. ففى"أحلام فترة النقاهة"سيتبدى متقاطعا مع معطيات الرواية الجديدة التى تتماس مع أفكار الواقع الإنسانى فى صورته المعولمة، لذلك لم تكن قناعاته بتفتيت المركزية الروائية منفصلة عن مفهومه تفتيت المركزية القومية عبر الانحياز للجماعات المهمشة، التى تمثل نقائض هذا المركز الذى اعتاش على دغدغة مشاعر الدهماء بأحاجى وألغاز من قبيل الالتزام وحتمية صناعة العقل العام فى ظلال المشروع الوطنى.

وإن كانت قد تعاظمت قيمة الرواية فى التاريخ الإنسانى المعاصر بفعل استبطانها للمفاهيم الفردية والذوات المتشظية التى ترفض أن تتزيا بمسوح الرهبان والقديسين، فإن الرواية "المحفوظية" كانت سباقة فى إدراك حقيقة أن هذا الفن الوليد هو السردية التاريخية القادمة للطبقات الوسطى فى العالم أجمع، رغم أن رواية البدايات السابقة لمحفوظ لم تكن التعبير الأدق عن مآل هذا الفن الذى بات يانعا بين أيدينا. من هنا بدت المسافة شاسعة بين محفوظ وبين سابقيه فى الرواية العربية.

وبرغم صرامة اللغة المحفوظية ودقتها وسلامتها سنجد اعتمادا واسعا ومفرطا على اللغة الهشة، التى تنأى بوعى كامل، عن التركيب والمعاظلة والتأويل، سنجد سيرة شخصية تضفى على آثامها حيادية تشى بأن آخرين هم من اقترفوها، رغم الإشكاليات الوجودية شديدة التعقيد فى معظم أعماله الإبداعية؛ فسنجد الصراع المرير فى أولاد حارتنا للبحث عن أيقونة العدل حول البيت الكبير الذى يمثل الإرادة المهيمنة، وسنجد ذلك فى رحلة البحث عن الأب لدى "صابر" بطل رواية الطريق، وهو هنا يمثل البحث عن الجذر الوجودى بما ينطوى

عليه من قيم أخلاقية واجتماعية، وكذلك سنجده في"الزعبلاوى" التى تمثل بحثا آخر عن المخلص الذى يملك مفاتيح الحياة، وسنجده فى الثورة التى تمثل الحلم المجهض لجيل المستقبل فى"الحب فوق هضبة الهرم"و"الكرنك" وأيضا فى"الثلاثية" عبر هيمنة النموذج الأبوى ممثلة فى"السيد أحمد عبد الجواد" حيث لا تبدو السلطة، بكل تجلياتها، قادرة على اختيار مصير أقل مأساوية للأسرة أو للوطن على السواء.

وأتصور أن التعبير الدقيق عن رواية محفوظ فى الثقافة العربية يجد صداه فى قول الناقد إبراهيم فتحى:"الرواية عند محفوظ ظلت نوعا أدبيا فى طور التكوين لم تنغلق فى نسق من الخصائص المميزة، بل ظلت شديدة التفتح والمرونة.."

وإذا كانت هذه الحقيقة قد أخرجت الرواية، كما أسلفنا، من فردوس الفنون"الرفيعة" فإنها احتفظت لها بالكثير من القدرة على الحسم والتخطى مثلما كانت لحظة انطلاقها؛ حيث مثلت أقسى سخرية ممكنة من المثالية والكلاسيكية بصفة عامة، لاسيما فى سعيهما إلى"التعبير عن قضايا لا متناهية عبر أدوات شديدة التناهى"حسب"فردريك فون شنيجل"، وهو ما يعنى أن الوضاعة، حسب هذا الوصف،

ظلت أحد أهم أسباب انتعاش الرواية وتجددها، وظلت الرواية قادرة على تجديد مساحات التعاطى مع أكثر الموضوعات استغلاقا على الفهم، لاسيما فيما يتعلق بتجليات القضايا الميتافيزيقية التى شغلت ملايين البشر دون أن تقدم لهم أكثر من وعد بحرية وعدالة قد لا تأتيان أبدا ؛ على أن الذين انشغلوا بهذه السلطة كانوا الأكثر رفضا للتصورات البشرية العامة، بما يميزها من نقصان، لفكرة الدور الاجتماعى للأدب. وأتصور أن الأدب التطهرى خسر الكثير من وقاره لأسباب من هذا النوع، لذلك كان سارتر يقول عن فرانسوا مورياك:"إنه يكتب كإله بينما الإله ليس فنانا، وموزياك كذلك أيضا".

من هنا كانت الإزاحة التى صنعتها رواية القرنين الأخيرين فاضحة للفنون الأخرى ذات التقاليد التاريخية الصارمة التى يأتى الشعر على رأسها؛ حيث ظل العالم الداخلى يلعب دورا مسرفا فى إبطال الدور الاجتماعى للعمل الأدبى، واعتبر شاعر الحداثة"الوعى الذاتى، لا الواقع الخارجى محورا أساسيا للإبداع"، وهو الحس الذى برره هؤلاء بأنه محصلة ملهمة للشعور العام بالاغتراب. وقد مثل

هذا الفهم أقصى تعبير شعرى عن حقبة الحداثة، رغم أنها كانت ولازالت تعد ملمحا مروعا من ملامح انهيار ثقافة البرجوازية. وظل البحث المحموم لدى الشعراء عن الأقنعة يمثل التعبير الموضوعى عن توتر ما يسمى بالبنية الإيقاعية ودفع الجملة الشعرية إلى تكثيفات مضاعفة. وربما، تحت وطأة هذا الدور الرسولى، اعتقد الشاعر الحداثى أنه المكلف بوضع الدستور النهائى للشعر والمعرفة معا، وكأنه السقف الأخير الذى تنتهى عنده الأشياء، من هنا يأتى تعالى الشعر، وتأتى ذهنيته، ويأتى احتماؤه بالمعرفة، ويأتى مأزقه أيضا. وأظن أن الشعر يحتاج إلى الكثير من الإنصات إلى صوت السردية التاريخية التى بدأت فصولها فى القرن السادس عشر بين أيدى النبلاء من وقود الثورات والحروب، هؤلاء الذين تبخر لحمهم فى مداخن الرأسمالية المتوحشة. فالشعر يحتاج إلى الاستماع إلى غناء الأهل وسردياتهم المتناثرة على الجسور وعلى أكتاف النواطير، باختصار يحتاج إلى العودة إلى أهله. ولن يحدث ذلك بطبيعة الحال، قبل عودته من فردوسه السماوى إلى جحيم الأرض ليتحدث لغتها.

فاللغة، حسبما يعلمنا بورخيس،"ليست فيما يشير لنا المعجم من أنها اختراع أكاديميين ولغويين، فالحقيقة أنها

جرى تطويرها على أفواه فلاحين وصيادين وفرسان". والرجل بهذا المعنى لا يعلمنا فقط احترام من نعتقد بأننا نسدى إليهم النصيحة، بل يسخر بوضوح من اللغة التى اعتقدنا بقداستها، وعكفنا السنين على تنقيتها مما نعتقد أنها الأوشاب .

لذلك، لا أجد أية غضاضة فى القول إنه على الشعراء أن يمتثلوا بين يدى الشيخ الإمام نجيب محفوظ ليسألوه الأمر الذى كانوا يستكرهون، ولا أظن الرجل، وهو يتوسد خرقة بين نقائض فردوسه، سيدير ظهره لبنى جلدته!

محمد البساطى..
روائى الطبقة المتوسطة وصانع أحلامها

ثمة قوس مغلق كانت تعززه النقدية العربية، يؤكد فى صلف نادر، نهاية الرواية العربية بعد نجيب محفوظ. وما من شك فى أن محفوظ يمثل قيمة إبداعية سامقة وفريدة فى تاريخ الرواية العربية، غير أن إغلاق القوس الإبداعى على مثل هذه التصورات الإقصائية كان من شأنه تعميق صورة جزئية عن مفهوم الإبداع، فضلا عن التكريس لقيم بالية تدعم السلطة الأبوية، كما تكرس لمثل هذه الهرطقة النقدية، هذا بطبيعة الحال يهدر قيمة التجديد فى الإبداع وغير الإبداع فى كافة مجالات الحياة، فضلا عن إهدار القيمة الجوهرية لفن الرواية باعتباره فن الطبقة المتوسطة بامتياز، حيث كان بديلا إنسانيا وأخلاقيا عن فكرة الاغتراب داخل المجتمع الصناعى الذى عززت من أزمته توحشات الرأسمالية العالمية بما صاحبها من حروب ودمار. من هنا كانت السردية الحديثة بمثابة المائدة الواسعة التى تقاسمتها البشرية فى بقاع الأرض وتبادلت الأحاديث المشتركة حولها. ولأن مثل هذه

التصورات عن البطولات الفردية لمحفوظ أو غيره كانت باهظة في سوء تقديرها فلم تصمد أمام التحولات الجذرية التي طرأت على الرواية العربية مع الأجيال المتلاحقة من المبدعين. فمع جيل الستينيات وتأسيس ملامح واضحة لتيار الوعي في القصة والرواية ثم التأثرات الدقيقة بالواقعية السحرية، قدم عدد من الروائيين، الذين باتوا كبارا فيما بعد، عددا من الأعمال الحاكمة في هذا السياق تجاوزت مثيلاتها عند جيل التأسيس الأول، وقد حازت الرواية التاريخية، مثالا، موقعا متقدما في رؤية هذا الجيل، وكان النموذج الذي قدمه سعد مكاوي في روايته الفذة: "السائرون نياما" ثم جمال الغيطاني في روايته "الزيني بركات" يتقدم بجدارة على النموذجين اللذين قدمهما كل من محمد فريد أبو حديد ونجيب محفوظ في الرواية التاريخية. ثم تشكلت وسط هذا الزخم أصوات مغايرة أشد المغايرة في وعيها بالعالم وفي علاقتها باللغة، وكانت مجلة "جاليري ٦٨" منبرا لصعود أصوات مهمة ومؤثرة فيما بعد بينها إدوار الخراط وإبراهيم أصلان، ومحمد روميش ومحمد البساطي وغيرهم.

كان البساطي، الذي رحل عن دنيانا عام ٢٠١٢ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين، قد بدأ حياته الإبداعية في

عام ١٩٦٨ بمجموعته"الكبار والصغار"، محتفيا بلغة متقشفة تتخلى عن بلاغتها التقليدية التى تسربت من التراث المحفوظى والتى تشكلت على نحو أكثر كلاسيكية مع روائيى الكلاسيكية المصرية: أمين يوسف غراب، محمد عبد الحليم عبد الله، إحسان عبد القدوس، يوسف السباعى وغيرهم. كان انحياز البساطى لتلك اللغة الهشة البسيطة تعبيرا عن الوعى الجديد بالعالم، حيث كان هذا هو التعبير الأسبق عن ضرورة إعادة النظر فى مفهوم القضايا الكلية والمطلقة التى تعاملت مع الراوى باعتباره ذاتا علية وعليمة، وسنعثر على تلك الهشاشة الإنسانية فى الأبطال المسحوقين من البسطاء، وفى الواقع الريفى أو المدينى الذى لا يحتل أكثر من هامش قابع فى طى النسيان.

وقد كانت تعبيرات البساطى الروائية عن قضية الحرية وتجلياتها فى الواقع المعاش نموذجا على هذا الوعى الجديد الذى لم يتحول فيه الراوى إلى مخلّص. هذا النموذج للراوى المسحوق يتبدى فى العديد من النماذج الروائية التى يبرز بينها رواية"الخالدية"التى تمثل مدينة محمد البساطى المتخيلة التى لا وجود لها فى الواقع، حيث تجسد حياة رجل شرطة

يصنع مدينة متخيلة على الورق تدور فيها وقائع شديدة الزخم تكشف عن أعلى درجات العنف والفساد. وهى من هنا تعد رواية تعادى تراث الواقعية التقليدى لتؤسس لخيال جديد وغير مسبوق ظل محفوفا بخشونة واقع مدبب وحاد، تكتنفه حالة من العنف المروع، فى مناخ شبه عسكرى تديره وتغلفه الكعوب الصلبة والخشنة لأجهزة الأمن وكعوب أكثر خشونة للبنادق وللجنود الذين يحملونها ليلكزوا بها كل من تسول له نفسه الاقتراب ويقتلون بها أيضا إذا لزم الأمر. أما صور الفساد التى يرصدها البساطى فى تلك الرواية فتستعصى على الحصر، حيث تبدأ بالقضايا الملفقة، ولا تنتهى بقضايا الدعارة ثم القتل، غير أن أبرز صورعنف السلطة التى تواترت فى أعمال البساطى تتبدى فى الموقف شديد التعسف من الاحتجاجات العمالية وأساليب التعذيب المبتكرة وغير الإنسانية وهى مشاهد تكرسها رواية الخالدية بأكثر التعبيرات مأساوية. وتبدو أعمال البساطى الروائية بصفة عامة شديدة الإحكام، وبعيدة عن الترهل بسبب لغتها المتقشفة، فضلا عن أن السرود نفسها تظل خادمة أمينة للبناء المتنامى للحدث. وتتبدى تلك الصورة فى ذلك الإحكام

السردى الذى يتناول كوابيس بطل رواية الخالدية حول مدينته المتخيلة والموهومة التى يغادرها فى النهاية ميتا بفعل أحد هذه الكوابيس.

فوق ذلك فإن البساطى لم يتخل فى معظم أعماله عن عالمه الأثير الذى مازال يمت بصلة إلى الريف الذى انحدر منه، حيث ولد بقرية الجمالية المطلة على بحيرة المنزلة فى عام ١٩٣٤، فأبطاله فقراء ومن بين العوام بشكل ما، وهم عادة من وقود الطبقة الوسطى التى ينتمى إليها، ونلاحظ أن أبطاله قد تزودوا من خبرته العملية التى قضى معظمها مراقبا حسابيا فى جهاز رقابى دقيق هو الجهاز المركزى للمحاسبات، وربما كانت أجواؤه الروائية فى الكثير منها مأخوذة من هذا المناخ الذى فتح للبساطى أسرارا شتى. وتجسد روايته"فردوس"تلك الصورة عن الريف المصرى وأبوابه المغلقة على كنوز من الأسرار. فى تلك الرواية الإشكالية التى تتماس بشكل كبير مع رواية"امتداح الخالة"للبيروفى"ماريو فارجاس يوسا"، تتواتر الأحداث حول تلك العلاقة المحرمة بين الابن وزوجة الأب التى تكتمل لدى يوسا وتظل منقوصة ومجرد حلم لدى البساطى، وهى علاقة

تملأ كل شقوق الذاكرة وكل ما تتفتق عنه الأحداث من نتوءات وتجليات، عبر خصوصية اللغة، وخصوصية المكان،فى مجتمعات مغلقة على شرقيتها تشهد فى الواقع ما هو أفدح من مثل هذه العلاقة التى حافظ البساطى على سياجاتها المتعددة والمتراكبة إلى حد إعادتها إلى مرجعيات ذات أصولية اجتماعية، الأمر الذى منحها تمايزا خاصا عن رواية نظيره البيروفى. والمتأمل لأداء البطلتين"فردوس البساطى"و"دوينا لو كريثيا"لدى يوسا ، لا سيما فى أداءاتهما النفسية سيكتشف حجم التباينات الثقافية ومن ثم الإبداعية بين الروايتين.

لم تقتصر رؤية البساطى الروائية على البيئة المحلية بل تطرق للمحيط الجغرافى الذى لعب دورا كبيرا فى تحولات الشخصية المصرية فى الثلاثين عاما الأخيرة، حيث الهجرات المصرية الواسعة إلى منطقة الخليج، وهى مساحة شغلت عددا من روائيينا المعاصرين مثل محمد عبد السلام العمرى فى روايته المهمة"قصر الأفراح"، وإبراهيم عبد المجيد فى روايته"البلدة الأخرى"وكذلك محمد البساطى فى روايته"دق الطبول"التى تدور أحداثها فى إحدى الإمارات الخليجية

الصغيرة، حيث العمالة الأجنبية عربية وغير عربية، وحيث الكشف عن نمط الإنتاج الريعى الفاضح. فعبر نماذج مصرية وشبه آسيوية، باكستانية، بنغالية، هندية، تتكون أحشاء الأحداث الروائية، ونرصد مع الروائى نهوض هذه العمالة الوافدة بكل شىء تقريبا، وعبر صور عديدة للتفرقة تتبلور النقائض وتتنامى الثنائيات، فهناك الأسود والأبيض، المسلم وغير المسلم، الغنى والفقير، المقرب من صاحب القصر والمغضوب عليهم، ثم السيد والخادم، وهذه الأخيرة هى الثنائية الأكثر بروزا فى مجتمعات لم تتبلور فيها صيغة أكثر تطورا لعلاقات العمل المنتظمة التى تعتمد على الأنظمة الأبوية بترسيخها الدائم لمفهوم السيد والعبد.

وربما كان التوقف أمام هذا المفهوم القاهر فى العلاقة الإنسانية سببا مباشرا يصلح لاستخلاص نتيجتين مدهشتين أسفر عنهما النمو الطبيعى لمثل هذه العلاقات عبر النسيج الروائى:

النتيجة الأولى التى تبلورت عبر السرد الروائى هى ظهور علامات العجز الجنسى على كل العاملين الأجانب، والنتيجة الثانية هى أن الكشف والتفكيك الذى تقدمه الرواية للعلاقات

الاجتماعية فى مثل هذه البقعة من العالم يعكس قدرا هائلا من الوعى الذى تؤكده السرود والبنى واختيار الأبطال وحركتهم داخل الزمن الروائى، لتظل تتمحور هذه السرود حول تجسيد درجات عالية من التنكيل بالقيمة الإنسانية دون تعسف أو افتعال أو خطابية، حتى أن حيدة الروائى محمد البساطى تكاد أحيانا تنتزع من الأحداث قدرا ليس قليلا من طزاجتها لا سيما وأن البساطى يعتمد لغة متقشفة لا تشهد أية ترهلات، على عادة معظم رواياته. وتعد رواية"دق الطبول"إلى جانب عشرات الروايات الأخرى واحدة من علامات النضج السياسى والثقافى للبساطى لاسيما فى ما قصده من كشف وتعرية للهيكل المجتمعى البطريركى فى مصر وفى غيرها، حيث يلعب الدين والموروث الشمولى والأبوية الأدوار الأساسية، لينقسم المجتمع ليس إلى فئات ومهن وطوائف، ولكن إلى سادة وعبيد. وسيظل رهان الفن قائما فى مدى قدرته على اختراق وإعادة اكتشاف هذه البنى التسلطية وغير الإنسانية دون صراخ أو ضجيج.

ليس بعيدا عن ذلك موقف البساطى من المؤسسة الثقافية، لاسيما بعد أن أقيل بشكل مهين عقب قضية ما يسمى

بالروايات الثلاث إبان رئاسته لتحرير سلسلة"أصوات أدبية"حيث تمت مصادرة ثلاث روايات صادرة عن السلسلة بدعوى مجافاتها للآداب العامة، وكانت هذه المشاركة هى الأولى للبساطى فى العمل العام، فعاد لتحفظه وبعده عن المؤسسة بكل ما فيها ثم تصاعد موقفه السياسى ضد نظام مبارك وكذلك ضد فساد المؤسسة الثقافية، وهو موقف كلف البساطى الكثير؛ لذلك لم يحصل على الجائزة التقديرية سوى عندما كان على فراش المرض وعلى مبعدة من الموت بأيام قلائل.

أنجز البساطى ما يزيد على الخمس عشرة مجموعة قصصية وما يزيد على العشرين عملا روائيا بينها:"التاجر والنقاش"١٩٧٦،"المقهى الزجاجى"١٩٧٨،"الأيام الصعبة"١٩٧٨، بيوت وراء الأشجار"١٩٩٣،"صخب البحيرة"١٩٩٤،"أصوات الليل"١٩٩٨،"ويأتى القطار"١٩٩٩ ،"ليال أخرى"٢٠٠٠ ثم رواياته فردوس، الخالدية، دق الطبول، وأخيرا روايته"جوع"التى رشحت للفوز بالجائزة العالمية للرواية العربية فى دورتها الثانية (٢٠٠٩).

وله عدة مجموعات قصصية منها:"الكبار والصغار"(١٩٦٨)"حديث من الطابق الثالث"(١٩٧٠)"أحلام

رجال قصار العمر"(١٩٧٩)"هذا ما كان"(١٩٨٧)"منحنى النهر"(١٩٩٠)"ضوء ضعيف لا يكشف شيئا"(١٩٩٣)"ساعة مغرب"(١٩٩٦) ويأتى القطار، ليال أخرى، فردوس، أوراق العائلة الصادرة عام ٢٠٠٣. وقد حصل البساطى على جائزة سلطان العويس فى الرواية عام ٢٠٠١ مناصفة مع السورى زكريا تامر.

بهاء طاهر..
وصناعة تيار الوعى

قليلون هم الروائيون العرب الذين يتعاملون مع فن الرواية باعتباره بناء تشريحيا يتقصى درجة مقبولة من التراتبية والنظام عبر قراءة رأسية للتاريخ الذى يخلقه أو يعيد خلقه فن العصر الصناعى بامتياز، وذلك بعيدا عن مفهوم التراكم الذى أصبح يحتفى بالسرد بدرجة عالية من المجانية، دون النظر لمفهوم الوظيفة المنوطة بهذا التراكم سلبا أو إيجابيا.

يعد الروائى بهاء طاهر من أولئك الروائيين الذين استمسكوا بدور الفن ووظيفته كأداة من أدوات تطوير الوعى المجتمعى، فهو من هؤلاء الروائيين الذين ينحدرون من سلالة التأسيس الروائى الأول وإن انتسب لجيل الستينيات فى مصر، رغم أن أعماله القصصية والروائية واحدة من الأعمال النادرة التى استقدمت الكثير من ملامح تيار الوعى فى الكتابة العربية، وقد استطاعت أن تحفر لوجوده مكانة متميزة، تنامت وتبلورت عبر العديد من الأعمال الروائية والقصصية. وفى أكثر من عمل روائى يؤكد طاهر أن قدرته

على تطوير الوعى بدور العمل الفنى كقوة مدركة ومتجددة لا تحدها آفاق، بغض النظر عن الجيل الذى ينتمى إليه، وتتبدى التقنيات المتعددة التى استخدمها الكاتب فى رواياته قوة مضافة لذلك الوعى المتجدد، سواء كان ذلك على مستوى التركيب الدلالى والزمنى، أو على مستوى السرد وتداخل الشخوص وعلاقتها بالتاريخ.

والتاريخ فى أعمال كاتبنا باذخ بما لا يمكن مقاومته. فـ"بهاء طاهر"ينتمى إلى مدينة الكرنك، وهى إحدى قرى مدينة الأقصر الواقعة جنوب القاهرة العاصمة بحوالى سبعمائة كيلو متر، وهى بين أهم المناطق الأثرية فى التاريخ المصرى القديم، وهو ما جعل التاريخ منطقة أثيرة للكاتب. وربما تعززت تلك العلاقة بالماضى أيضا عبر الأب الأزهرى المتعلم فى وقت كانت تتشكل فيه التربة الممهدة لصعود الطبقة الوسطى، لكن بهاء لم يكن وحيدا فى عائلته ؛ بل كان بين حوالى ثمانية أولاد، لكنه، على ما يبدو، كان الوحيد الذى استفاد من مكتبة والده الأزهرى وقرأ منها أمهات الكتب، وربما وفر وضع الأب الوظيفى حياة ميسرة للأبناء؛ ومن ثم مناخا ملائما لاستكمال بهاء طاهر لمسيرته، لكن الحال تغير

بعد إحالة الأب إلى التقاعد، ثم وفاته. ولا يخجل بهاء طاهر من الاعتراف بالفقر المضنى لعائلته التى تحملت الأم مسؤوليتها بعد رحيل العائل الوحيد، من هنا لا ينكر طاهر دور ثورة يوليو فى إعادة الكثير من الاحترام لكرامة الإنسان المصرى. وأظن أن الشاعر بهاء حسين استطاع أن يغطى الكثير من تلك الجوانب فى حياة بهاء طاهر عبر كتابه الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة فى عام ٢٠١٠، وهو حوار مطول تحدث فيه طاهر عن أهم مفاصل مشواره الإنسانى والإبداعى، ولم يخجل من ماضيه التعس الذى توقف فيه أمام الكثير مما يبدو مخزيا للبعض. فبالإضافة إلى عمق وثراء ما قدمه بهاء طاهر لحياتنا الإبداعية فى أعمال عظيمة ومتميزة مثل مجموعاته:الخطوبة ١٩٧٢، بالأمس حلمت بك ١٩٨٤، أنا الملك جئت، ذهبت إلى شلال، لم أكن أعرف أن الطواويس تطير، أصدر طاهر عددا من الروايات المهمة والتى تعد إضافة حقيقية إلى منجز الرواية العربية مثل: شرق النخيل، قالت ضحى، خالتى صفية والدير، وتم تحويل هذه الرواية إلى مسلسل تليفزيونى لاقى نجاحا كبيرا على المستوى الجماهيرى، ثم رواياته المهمة الحب فى المنفى، نقطة النور،

واحة الغروب وترجمته لرواية ساحر الصحراء لباولو كويلهو، بالإضافة إلى كتابه الفكرى المهم"أبناء رفاعة"، وهو كتاب يمثل انحيازا طليعيا ومتقدما لمفهوم الدولة الحديثة، حيث يقدم رؤية ناصعة على المستويين السياسى والفكرى لموقف بهاء طاهر من مفهوم الدولة الوطنية، الذى تبدى بجلاء فى عشرات المواقف بداية من موقفه المؤيد بشكل عارم لثورة يوليو التى يراها أول ثورة حقيقية فى حياة المصريين، ويرى زعيمها واحدا من أهم الزعماء عبر التاريخ، لكن هذا الموقف لم يمنع بهاء من المشاركة فى تظاهرات الجامعة التى وصف طلابها آنذاك الوضع السياسى بالانقلاب على الثورة، ورفع كثيرون وقتها شعار"يسقط حكم البكباشية"حيث كان الجميع يبحث عن الحرية، ويشير الكاتب بهاء طاهر إلى التأييد العارم للكثير من قرارات الثورة مثل اتفاقية الجلاء والإصلاح الزراعى، وفى الوقت نفسه رفض عمليات قمع الديمقراطية ومحاكمات الثورة، وأزمة مارس وإلغاء حرية الصحافة، وإلغاء حق التظاهر، وإلغاء حق تكوين الأحزاب، ومع ذلك يصف بهاء طاهر جمال عبدالناصر بأنه الزعيم التاريخى. ثم تبلور أيضا هذا الموقف الوطنى المتقدم فى رفض بهاء للكثير من

السياسات الساداتية لاسيما سياسة الانفتاح الاقتصادى التى قلبت المعايير المجتمعية، ومثلت إساءة كبيرة كان مقصودا منها العودة بالطبقة الوسطى إلى مصاف الرعاع والدهماء كما كانوا قبل يوليو، ثم تنامى الموقف الوطنى لبهاء طاهر فى تأييده لثورة الخامس والعشرين من يناير، ثم معارضته الشديدة لحكم الإخوان المسلمين، ليس هذا فحسب بل كان بهاء طاهر هو من أعلن الاعتصام مع الروائى صنع الله إبراهيم بمكتب وزير الثقافة الإخوانى علاء عبد العزيز وذلك قبل أيام من ثورة الثلاثين من يونيو ٢٠١٣، التى انتهت بإزاحة الإخوان من سدة الحكم، ثم جاء تأييد طاهر للثورة الجديدة وتبلور موقفه المؤيد لدور المؤسسة العسكرية بعد موجات الإرهاب العارم الذى تعرضت وتتعرض له مصر منذ إزاحة الإخوان عن سدة الحكم. فى هذا السياق لم يكن غريبا أن يرد بهاء طاهر جائزة مبارك التى حصل عليها فى عام ٢٠٠٩ وذلك فى عام ٢٠١١ بعد هبوب ثورة الخامس والعشرين من يناير، رغم أنها أرفع الجوائز المصرية قبل أن يتغير اسمها إلى جائزة النيل عقب الثورة وهو الاسم الذى كان مقترحا لها، معللا ذلك بأنه لا يمكنه قبول جائزة باسم رجل سالت على يديه دماء المصريين الشرفاء.

وبهاء العارف باللغة الإنجليزية معرفة أهلها يعد، فى الوقت نفسه، واحدا من العارفين بأسرار اللغة العربية وكذلك التاريخين النثرى والشعرى فى الثقافة العربية، فوق هذا هو واحد من العارفين بالموسيقى العربية والكلاسيكية والفن التشكيلى، ودائما ما يشير إلى سحره بشعر المتنبى وغيره من كبار شعراء العربية، ويذهب كثيرا فى أحاديثه إلى الاستشهاد بهم. كذلك تابع طاهر إنتاج المحدثين من رفاق جيله بل من هم أصغر منه، حيث تابع رحلة: إبراهيم أصلان، محمد البساطى، ويراهما من أحب كتاب جيله إلى قلبه، كما يشير إلى يحيى الطاهر عبد الله قائلا: إنه الروائى الفذ، كما يعتبر أن رواية عبد الحكيم قاسم"أيام الإنسان السبعة"واحدة من أهم رواياتنا العربية فى العصر الحديث معللا ذلك بأن قاسم يعد واحدا من المؤسسين الحقيقيين لما يسمى بالواقعية الجديدة.

ويعتبر بهاء طاهر المولود عام ١٩٣٥ واحدا من المؤمنين بأن الأدب مرآة للمجتمع؛ ومن ثم فإن الكاتب فى نظره لابد أن يكون شريكا فى صناعة المستقبل، سواء كان ذلك بالمعنى المجتمعى أو السياسى بالإضافة إلى وديعته الفكرية

والإبداعية. من هنا لا ينس بهاء مشاركته في سن مبكرة فى مظاهرات مدرسة السعيدية الثانوية ضد الإنجليز، ويعتد بصــرا ع الأفكار الذى كـان ســائدا بين التــيــارات الفكرية المختلفة فى ذلك التوقيت، ويتذكر المناخ الليبرالى الذى كلل المرحلة بكاملها عبـر المنابر والصحف وقنوات إبداء الرأى، لكنه مع ذلك، لم ينضم لأى تنظيم أو حـزب سـيـاسـى حـتى الآن، رغم أنه كان قريبا على الدوام من المناخات السياسية والعمل الميدانى والحركى، فقد تطوع طاهر فى صفوف المقاومة الشعبية بين سنوات ١٩٥١، ١٩٥٦، ١٩٦٧.

ويعتد بهاء طاهر بدور النخب المثقفة التى أسست لحلمها مع ثورة يوليو وما قبلها مؤكدا أن هؤلاء هم الذين بلوروا ما وصفه فى مرات كثيرة بـ"الحلم المصري"الذى هو، باختصار شديد جدا، حق التعليم للجميع والديمقراطية، وأن تكون الأمة فوق الحكومة كما عبرت عن ذلك ثورة ١٩١٩، وفكرة العدالة الاجتماعية وحقوق المرأة ومساواتها بالرجل. ربما كان جزء كبير من تلك المسيرة يلخص لنا اختيار بهاء طاهر لدراسة التاريخ بكلية الآداب، وذلك عكس رغبة والده الذى كان يريد له أن يكون شيخا معمما.

ولاشك أن جماع تصورات بهاء طاهر عن الثقافة هى ما جعلت منه روائيا متميزا على رأس جيل مؤسس لتيار الوعى فى الرواية المصرية رغم أنه بدأ واقعيا.

وقد حصل بهاء على جائزة الدولة التقديرية فى الرواية بعد أن عانى أشد المعاناة بسبب هجراته المتوالية. فقد بدأ حياته العملية مترجما فى الهيئة العامة للاستعلامات ثم انتقل إلى الإذاعة وكان أحد أهم مؤسسى إذاعة البرنامج الثانى، وقدم من خلال برامجه عشرات من الأصوات الجديدة بالإضافة إلى أساطين الكتابة الإبداعية وعشرات المفكرين فى مختلف الاتجاهات.

بعد أن تم منع بهاء طاهر من الكتابة فى الحقبة الساداتية بسبب موقفه من معاهدة كامب ديفيد هاجر وعاش متنقلا بين أكثر من منفى، ثم استقر به الحال فى فيينا حيث عمل مترجما بالأمم المتحدة بين أعوام ١٩٨١ حتى ١٩٩٥ ثم عاد إلى مصر ولازال يعيش فيها.

وقد حصلت روايته"واحة الغروب"على جائزة"البوكر"العربية عام ٢٠٠٨ وهى بامتياز رواية المكان المتعدد جغرافيا وإنسانيا، ويعود تاريخ أحداث هذه الرواية إلى ما قبل ثورة

عرابى والإسكندرية، حيث حركة مقاومة الاحتلال الإنجليزى وواحة سيوة"المكان الروائى"التى كانت تمثل جيبا من جيوب الخروج على سلطة الدولة، وهى تمثل المكان الأخير للصراع بين الدولة بمفهومها الحديث وبين الوعى العشائرى والقبلى الذى يمثله أهل الواحة، فى مناخ من الجهل والفقر والمرض، وعادات وتقاليد يتعامل معها أصحابها كمقدسات لا يمكن المساس بها، وتبدو الانتقالات شبه المنطقية داخل المكان الروائى غير خاضعة لسلطة الراوى المتعدد، لذلك فإن عنصر الزمن ظل مالكا لنفس القدرة على التعدد والحركة للأمام والخلف، أما أبطال تلك الرواية المهمة فيبدون الأكثر تنوعا وتناقضا فى الوقت نفسه، فرغم حراكهم الذى يبدو باتجاه هدف واحد، فإن كلا منهم يبدو ماضيا وفى ذهنه يتشكل عالم من الأحلام النقيضة، فمحمود يمضى كضابط شرطة تتنازعه مشاعر متناقضة بأن نقله إلى الواحة إنما كان عقابا له على موقفه الوطنى من الاحتلال الإنجليزى، لذلك كان يتوقع الموت فى كل لحظة بحكم تركيبته العدمية، حيث يقع فى الخطيئة بنفس القوة التى يندفع بها إلى التمسك والدفاع المستميت عن منظومة القيم الإنسانية الرفيعة، أما كاثرين

زوجته، بولندية الأصل، فقد ورثت كراهية الإنجليز عن أهلها والأب والأخت القديسة فيونا، وربما كان هذا هو المشترك الأبرز فى علاقتها بمحمود القوى المحتد بعمليته، والذى لا يهتم كثيرا بتلك الشؤون التى لا يفهمها والتى تدور فى ذهن كاثرين وتلح عليها، عبر تلك الفكرة المجنونة التى هيأت لها أنها يمكنها أن تقدم من خلالها أعظم كشف أثرى حديث، حيث كانت تعتقد - عبر قراءتها الواسعة فى التاريخ، والتراث المصرى تحديدا - أنها ستعثر على قبر الإسكندر الأكبر فى أحد معابد سيوة. ثم يتنامى صراع الحضارات والتاريخ ووعى بهاء طاهر المركب الذى قدم لنا فى النهاية منجزا باذخا على كافة المستويات.

محمد منير
الملك لا يتقاعد

سيظل الفنان محمد منير حالة خاصة فى الغناء المصرى الجديد، لاسيما بعد فشل معظم أبناء جيل السبعينيات من أقرانه فى تجديد رؤاهم لفنون الغناء، فوقع معظمهم فى أسر نموذجين؛ الأول: إعادة إنتاج النماذج الغنائية الكلاسيكية والتعيش من تقليدها، الثانى: مسايرة الصراعات الجديدة فى الغناء دون قناعة حقيقية بها، مما ساهم فى إنتاج نماذج غنائية شائهة لاهى لحقت بالجديد ولا تخلصت من ظلال القديم.

غير أن وعى محمد منير كان متجاوزا للحظته، حيث أدرك مبكرا أن التجديد حتمية من حتميات البقاء لأنه ببساطة يعكس إدراكنا لحاجات عصرنا، لاسيما إذا كان المعنى بالتغيير مغموسا فى الهم الوطنى بحكم علاقته باليسار المصرى منذ يفاعته الجامعية، وكذلك بحكم انحداره من أسرة متوسطة عايشت آلام الناس ولازالت تعايشها. من هنا لعبت تلك العوامل دورا فى تكوين منير الثقافى والفنى على هذا

النحو المتفرد بحيث جعلت منه هذا النسيج المتمايز وسط أبناء جيله. فمنير تمتد أصوله إلى منطقة النوبة ذات الخصوصية الثقافية، حيث صنعت هجرات أهلها بعد بناء السد العالى نوعا من الحنين إلى الأرض لم يفتر إلى اليوم، وظل الحنين لتلك الجغرافيا على المستوى الروحى أثرا قائما فى كافة أشكال التعبير النوبى، فى الرواية والشعر والقص والفنون عامة، غير أنه ربما للمرة الأولى، بعد رحيل مطرب"يا بيوت السويس"محمد حمام ، يصعد فنان نوبى إلى أعلى سطح المشهد الفنى فى مصر ليصبح عبر سنوات قلائل محاطا بالملايين من العشاق والمحبين، ليصبح النوبى محمد منير أو"الكينج"كما يطلق عليه محبوه، واحدا ممن صاغوا مستقبل الغناء المصرى فى حقبة توصف بأنها حقبة الهزيمة، باعتبار جيل السبعينيات وارث الألم بعد هزيمة يونيو، ثم هو أيضا وارث الهزيمة الأخطر بعد السلام المنقوص مع إسرائيل. منير مؤمن أشد الإيمان بوحدة تراب الوطن ولم ينخرط بأى صورة من الصور مع الفصائل التى أغراها ضعف الدولة المصرية بعد الخامس والعشرين من يناير للمطالبة بانفصال النوبة عن الوطن الأم. فقد تربى منير فى

كنف واحد من كبار الوطنيين المصريين وأحد كبار القادة فى اليسار المصرى هو المحامى والمناضل المعروف زكى مراد. وقد كانت تلك العلاقة بداية حقيقية لتشكيل النمط الثقافى والفنى الذى تبناه منير عبر علاقته بنصوص كبار شعراء العامية المصرية آنذاك: عبد الرحيم منصور، وصلاح جاهين، وفؤاد حداد. وقد كان هذا الوعى المبكر سببا فى إلحاق منير بكتائب المثقفين المصريين الذين رأوا أن الفن يجب أن يكون صاحب دور مؤثر فى صياغة مستقبل الوطن عبر صياغة الذائقة العامة . من هنا كان منير أول نوبى يمزج التراث الشعبى النوبى بالموسيقى المصرية الشعبية، أو النمط الكلاسيكى الذى استقر فى الذائقة العامة عبر مدونة عميقة تركها جيل من الملحنين والمغنين الكبار.

وقد كانت المحطات الأهم فى حياة منير حافلة بالفرادة والطليعية حتى فى النماذج الغنائية القديمة التى أعاد توزيعها وغناءها، غير أن قوام المشروع الفنى لمنير كان مستندا إلى رؤى متجددة لم ترتكن إلى القديم سوى بمقادير محسوبة بدقة، لذلك كان تعاونه مع التطلعات الجديدة مهما ومؤثرا فى مسيرته، ولعل العلاقة الطويلة التى قامت بينه وبين

الملحن هانى شنودة كانت صاحبة أثر عميق فى تطوير رؤاه الموسيقية، لاسيما فى ألبوماته الأولى التى فشل أولها بسبب سوء التوزيع اللحنى والموسيقى، فأعاد هانى شنودة توزيع تلك الأعمال ولاقت فيما بعد نجاحا باهرا وواسعا تأسست عليه فيما بعد نجاحات منير. وقد كان نجاح منير فى استخدام ودمج الإيقاع المصرى المقسوم الذى تألفه الأذن المصرية والعربية مع السلم الخماسى النوبى الذى يقترب كثيرا من الموسيقى الإفريقية واحدا من امتيازاته وإضافاته الحقيقية، وهو الأمر الذى تكرر فى استخداماته لموسيقى الجاز والراب، حيث تمكن عبر رؤية موسعة ومعمقة للذائقة العربية أن يقدم نماذج لاقت قبولا واسعا فى العديد من المدن العربية مثل الجزائر والمغرب والخليج العربى بل وفى العديد من دول أوروبية وعلى رأسها ألمانيا، حيث كانت قناعة منير القديمة الجديدة أن الفن نمط من المعرفة الإنسانية؛ لذلك يجب أن يبقى عابرا للجغرافيا.

وتعد الموسيقى واحدة من الفنون المثالية لتأكيد تلك النزعة الإنسانية لأنها تعد أعلى الدفقات الشعورية غير المنطوقة؛ مما يسهل عبورها إلى الآذان والقلوب دون عوائق

تذكر سوى مراعاة الثقافات المحلية على تنوعها، وصياغة نماذجها وفق تعريفات أشمل بحيث تكون مدركة لقيمة التنوع ثقافيا وحضاريا.

هذه التمايزات التى ارتبطت موضوعيا بوعى محمد منير بالفن لا تختلف البتة عن طريقته فى الأداء. فلم يظهر أبدا على المسرح مرتديا البزة الكلاسيكية، ولم يتوقف أمام ميكروفون بل هو فراشة دائمة السباحة على المسرح، كذلك بدت لهجته الهجين بين اللهجة القاهرية والأسوانية واحدة من تمايزاته. وقد كانت تلك الملامح واحدة من أجلى التعبيرات عن وعى مغاير للفن، لاسيما وأن منير ارتبط منذ بدايته بعدد من شعراء العامية الذين ضربوا عرض الحائط بالاتجاهات الرومانسية فى الفن، وقدموا مقترحا جديدا فى العامية المصرية تمكنت من الارتقاء بها كقصيدة زجلية تلقى فى المناسبات وتدرك دورها فى الترقى بالجماعة الشعبية. هذا الوعى المركب لدى محمد منير ربطه لزمن طويل بالثقافة النخبوية؛ ومن ثم أطلق عليه"مغنى المثقفين"غير أن هذا الحال لم يستمر طويلا، إذ أدرك منير أن دائرة النخبة ليست التعبير الأمثل عن الذائقة العامة، ومن ثم عمل على توسيع دائرة

التلقى فمزج بين الأشكال الفنية الشعبية وتراثها الممتد، واستطاع عبر ألبوماته الحديثة أن يلمس جوهر لحظته ويعايشها دون تعال أو انفصال أو تقليد للصراعات المستحدثة التى حققت رواجا كبيرا فى أوقات عصيبة بالنسبة لجيل السبعينيات من المغنين والمطربين.

هذه الصورة الكلية التى تشكلت للفنان محمد منير ساهمت فى تدقيق اختياراته وصوابها فى معظم الأحوال، وقدمته باعتباره واحدا من الواعين برسالة الفن فى عمومه وبرسالته الغنائية على نحو خاص. فكانت مشاركته الأبرز مع المخرج الكبير الراحل يوسف شاهين فى ثلاثة أفلام من أهم أفلامه هى: حدوتة مصرية، اليوم السادس، ثم فيلم المصير، كما شارك فى عشرات الأعمال الدرامية والفيلمية مثل: يوم حلو ويوم مر، اشتباه، شباب على كف عفريت، ثم كانت مشاركته الأكثر شعبية فى غناء تترات مسلسل"بكار"الذى أنتجه التليفزيون المصرى و ذاع صيته شعبيا، وهو مسلسل كرتونى بطله طفل نوبى. أما المحطة الأبرز فى حياة منير الغنائية فكانت مسرحية"الملك هو الملك"التى أخرجها مراد منير البورسعيدى ابن جيل السبعينيات، عن نص للكاتب

السـورى المعـروف سـعـد الله ونوس، وقـد اسـتطـاع منيـر أن يقدم فـى تلك المسرحية عددا من أهـم أغـانيه التى شكلت قوام ألبومه الأشـهر الذى حمل اسم المسرحية نفسـها.

وقـد بلغ مـحـمـد منيـر عامـه الستين فى أكـتـوبر من عـام ٢٠١٤ حيث ولد فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ، ومع ذلك لازال يعمل على إنجـاز العـديد من الألبومـات الجـديدة، لاسـيمـا بعـد أن أنهى زيجتـه من نوبيـة مـصرية تعيش فى باريس بعد شـهرين من الزواج بها دون أسباب واضحة أو معلنة.

ولاشك أن القمة التى يتربع فوقها محمد منير لم تتوافر له بشكل اعتبـاطى، بل إن جـهده ووعيـه كانا يسـتبـقـان خطواته إلى الفن؛ فكان أول مطرب يمزج بين الموسيـقى الإلكتـرونيـة الغربيـة وبين النغم العـربى الذى يطلق عليـه الإيقـاع"المقسـوم"، كـذلك كـان أول مطرب مـصـرى يدمج مـوسـيـقى الراب مع الإيقـاع النوبى، فى أغنيـة"سـيـا سـيـا"وأيضـا فى أغنيـة"افـتح قلبك"نجد موسيقاه تميل لموسيقى الراب. كذلك يعتبر منير أول مـطرب مـصـرى يقـدم مـوسـيـقى"الجـاز"و"الفـانك"فى أغنية"كريشندو"(قد وقد)، ولم تشـهد الموسيقى العربية تجارب مشابهة تقريبا، حتى أعاد منير تقديم هذا اللون من الموسيقى

مرة أخرى فى ألبومه"طعم البيوت"، وتحديدا فى أغنية"مش محتاج أتوب"٢٠٠٨ وكان من اللافت أن يكون منير هو أول مطرب مصرى يشارك فى افتتاح بطولة عالمية خارج مصر، بالغناء فى دورة ألعاب البحر المتوسط بفرنسا عام ١٩٩٣، وقدم فيها أغنية"وسط الدايرة". كذلك لم ينس منير قضيته الوطنية فلسطين التى تمثل قضية مصرية بالأساس، فقدم للانتفاضة الأولى عددا من الأغانى فى ألبوم"بريء"عام ١٩٨٦، كذلك غنى لبطلة الجنوب اللبنانى الشهيدة سناء محيدلى أغنية"أتحدى لياليك"فى ألبوم"وسط الدايرة"عام ١٩٨٧.

ربما لهذا وغيره حصل منير على جائزه السلام من قناة CNNعن ألبوم الأرض السلام، كما توج رحلته بالحصول على الجائزة البلاتينية من شركة يونيفرسال عن أغنية"ياسمينا"التى حققت مبيعاتها أكتر من ٧٥٠ ألف نسخة فى أوروبا.

هذه رحلة واحد من أهم فنانى جيل السبعينيات فى مصر. ذلك الجيل الذى خسر كل شيء تقريبا، فقد انحسر بين فكى رحى بدأت بهزيمة الخامس من يونيو وانتهت باتفاق

السلام الذى أخرج مصر ليس من الصراع السياسى فقط بل من الصراع الحضارى، فى الوقت الذى تداعت فيه ثقافة العولمة والوسائط الجديدة التى أفقدت الفنون الكثير من تأثيرها لاسيما تلك الفنون التى ارتبطت بالدولة القومية ذات النزعة الأيديولوجية.

الفهرس



المـؤلف

محمود قرنى

شاعر مصري أسهم في المشهد الشعري العربي وشارك مع بعض شعراء جيله في إقامة ملتقيين شعريين لقصيدة النثر عامي ٢٠٠٩-٢٠١٠ وشارك فيهما عدد كبير من الشعراء العرب

له عشرة دواوين هي :

حمّامات الإنشاد شعر.

هواء لشجرات العام شعر .

خيول علي قطيفة البيت شعر.

طرق طيبة للحفاة شعر.

الشيطان في حقل التوت شعر .

الشيطان في حقل التوت ط٢.

أوقات مثالية لمحبة الأعداء شعر .

قصائد الغرقى شعر.

قصائد الغرقى ط٢

- لعنات مشرقية شعر

- تفضل.. هنا مبغى الشعراء شعر.

هذا الكتاب

هذا الكتاب يقدم رؤي وأفكار بعض الكتاب لعلها تفيد في هذه المرحلة التي تمر بها البلاد ولعل كثيرين منا يذكرون كيف تجسدت في بداية ثورات التحرر عشرات الأفكار البراقة حول استعادة الفرد لصوته الخاص، وعودة الطبقة المتوسطة لقيادة المجتمع بعد عشرات العقود من الحكم الهيراركي، وكانت فكرة التحرر الوطني فكرة مركزية التف حولها المهمشون في العالم الثالث. غير أن الغرب الذي روج لصورة الديكتاتور العادل عاد ليعاقب المؤمنين بها، وكانت تهديداته الموجهة للمستعمرات القديمة جزءا من تعزيز هذه الحلول غير الديمقراطية. وفي غمرة الصراع ثنائي القطبية تم كسر شوكة المشروع الوطني في العالم على نحو عام وفي العالم العربي على نحو خاص. فبعد أن تجسد مشروع النهضة في تنامي مراكز تقليدية مثل بغداد والقاهرة ودمشق، انتهى الصراع في غير صالح الطموحات الوطنية لاسيما بعد هزيمة السابع والستين ومعاهدة السلام التي أخرجت مصر، ليس من الصراع العسكري فحسب، بل من الصراع الحضاري نفسه.

أتمنى أن يكون ماتضمنه هذا الكتاب يقع ضمن المحاولات الجادة لإعادة التذكير بالنموذج المتقدم لدور النخبة، وأن يكون محفزا على الانتباه للخطر الذي تقف على مذبحه نخبتنا المصرية والعربية على السواء .

روايات مصرية

إثارة ، متعة ، ثقافة ، تسلية ، ذكاء ، ألعاب ، مغامرات









الشركة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقي . الفجالة – ت 26823792 - 25928202 فاكس ـ 202/24677188 ،

4 ش الإسحاقي بمنشية البكري ـ روكسي ـ مصر الجديدة - القاهرة – ت 22586197 - 24550499 فاكس 202/22596650 ج.م.ع ،

4 ش بدوي ـ محرم بك – الإسكندرية – ت 03/4970840 - 03/4970850